بنكهة مختلفة

مجموعة قصصية

فاطمة عمارة

اسم الكتاب: بنكهة مختلفة.

اسم المؤلفة: فاطمة عمارة.

المدير العام: نهى محمود .

مدير التوزيع: سلمان عبد الغني هديب.

تصميم وإخراج فني: همت العزب.

تصميم الغلاف: وائل فهمي.

التصحيح اللُغوي: أولي النُهى للتصحيح اللُغوي (نهى محمود).

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠١٨/١٠٧٩٦

محفوظة جميع الحقوق

١٧ش حسن وهبة من شارع الهرم الرئيسي

خلف كايرو مول.

موبايل / ٠١٠٣٠٨٥٠٥١٢

البريد الإلكتروني:

nohamahmoud.171186@gmail.com

elshahdpublishing2016@gmail.com

تقديم وشكر لابد منه

كل القصص الواردة في المجموعة

قصص واقعية حدثت في الواقع

دمجتها الكاتبة بأحاسيسها وروعة قلبها

وأسلوبها الشيق المميز فشكرًا لها على شرف

إعطائها لنا لعملها الأول لنضمه ملف إنجازاتنا كدار نشر

دار الشهد للنشر والتوزيع

ولكم في القراءة حياة

نهى محمود

الناشر

شُكر وإهداء

تتوه الكلمات بين الشكر والإهداء..

الشكر لكل من شجَّعني ودفعني لأبدأ المشوار..

لكل من دعمني..

لمن وثق فيَّ، فزادت ثقتي بقلمي..

لمن همس في أذني بنقد فراجعت عملي..

وقبلهم جميعًا الشكر غير كافٍ لمن كان السبب الحقيقي فيما أنا عليه الآن " أبي وأمي" لكما الشكر الموصول والامتنان الدائم.

أهدي لكم جميعًا حكايات من الحياة..

رصدتها عيني أو سمعتها أذني ونقلها قلمي..

بكلماتي البسيطة.

فاطمة عمارة

شلَّة الهوانم

تتحـرك برتابـة.. رُسـم علـى وجهها علامات الغضب، وظهرت في حركاتها السريعة العنيفة رغم رتابة كل منها، تنهد وهو يتناول حقيبته مُؤثرًا السلامة، يتجنب أي حوار معها يكون الشعرة التي تُطلق القنبلة الموقوتة منفجرة في وجهه وقد بدت جاهزة تمامًا لذلك، اقترب من الباب بهدوء عازمًا إلقاء التحية بسرعة والخروج قبل سماع الرد ولكنه وقع في شر أعماله، فقد لمحت طيفه فتوقفت حركة يديها عن مسح الأتربة لتلتفت له كليًا

- أستخرج؟

هدوء كلمتها لم يُخفي عنف نبرة صوتها، سرق ابتسامة لا تحمل أي معنى واقترب يُقبِّل قمة رأسها.

- نعم، فقد اقترب موعد عملي.

دموع.. هل هذه حقًا ما يراها في عينيها، ارتبك لحظة قبل أن يجمع شتات نفسه لينطلق هاربًا من انفجارها.

وقفت تنظر إلى الباب المغلق خلفه.. لحظات.. دقائق.. لم تعد تعرف، أغمضت عينيها لتفلت دمعة حبيسة لتمسحها بقوة من فوق خدها كأنها تُعاقبها على الانفلات من معقلها لتستدير تُكمِل ما كانت تقوم به، ولكن هذه المرة بقوة وعنف أكبر.. تمسح أرفف المكتبة، تزيح الكتب وبراويز الصور وتعيدها مكانها بلا ترتيب فالمهم الآن أن تنتهي من الخطوة الأولي، ووسط شرودها وسرعتها طار ألبوم صور ساقطاً أرضاً و كل ما يحتويه حوله، وكأنه كان الفتيل لتسقط جواره على ركبتيها تكتم شهقاتها تبكي بحرقة لا تعرف سبباً محدداً لها.

لا شيء يسير كما رسمت وخططت حتى أبسط الأمور، استطاعت بشق الأنفس أن تتفق مع خادمة باليوم لتساعدها في تنظيف المنزل، وحسب رغبتها واليوم الذي حددته في جدول أعمالها المزدحم، حصلت على إجازة خصيصاً لها، وافقت على كل شروطها.

- سآتي في السابعة صباحاً..

موافقة.

- لن أستطيع أن أحدد أجري الآن فقد يكون العمل كثير..

موافقة.

- لي وجبة وإذا استمر العمل لما بعد الثالثة عصرًا فلي غداء أيضـًا.. **موافقة.**

- أحتاج هذه الأنواع من المنظفات.. **موافقة.**

لقد وافقتها على كل شيء وأعددت لها طلباتها التي كلفتها الكثير من مصروف البيت ولكن هذا لا يهم.. فقد تعبت وحدها واحتاجت إلى العون.. لتأتي "سيدة الأعمال الخادمة" لتطلبها في السادسة والنصف من صباح اليوم تُبلغها إنها لن تأتي اليوم فهي مرهقة وليتفقوا على يومٍ آخر.

لمحت إحدى الصور من بين دموعها وأفكارها التي تقذفها يُمنة ويُسرة حاولت أن تقترب لتمسك بالصورة لاحظت أن كفها تحوَّل إلى اللون الأسود بسبب أعمال النظافة.. قامت مُسرعة تغسلهما لتعود وتُمسِكها مرة أخرى.

"**شلة الهوانم**" في أوج مجدها.. تتلمس الوجوه الضاحكة أمامها وتضحك وسط دموعها وتهمس " أفتقدكم جدًا" مرَّ على هذه الصورة ما يزيد على خمسة عشر عامـًا.. وأين ذهبت بهم السبل؟ خمس بنات كن دائمـًا محط نظرات الإعجاب والحسد، ليس لجمالهن فالجمال دائمـًا نسبي وجمال الشكل يذهب ويبقى جمال الروح ولكن كان الجميع يحسد تماسكهن وترابطهن،

أخـوات ليـسوا مـن نفـس الأب أو الأم لا يحملـوا نفـس الـدم ولا الجينات الوراثية جمعتهم مقاعد الدراسة وتقاربت أرواحهن.

سها.. سهر.. سحر.. سهير..سهى

حتى أسمائهن تـشابهت، أعـادت النظر مـرة أخـرى للـصورة بين يديها، لقد التقطها لهـن أخيهـا بعـد تراشـقهن بـالألوان كلعبـة للخروج من ملـل المـذاكرة ولا تـرى مـن وجـوهن سـوى أعينهن وأسـنانهن البيـضاء تحتـضن كـلٌ مـنهن الأخـرى بيـدها ليـشكلن نصف قوس بأجسامهن.. وضـعت الـصورة جانبـاً لتلتقط غيرهـا وتزداد ابتسامتها مع كل صورة تمـر بـين يـدها مُعيـدة لهـا ذكريـات وضعتها على الرف، حتى أتت إلى صورة تقف هـي في المنتـصف بفـستان زفافهـا الأبـيض ويحطـن بهـا مـن كـل جانـب وقـد اخـترن فساتين بألوان مختلفة على أن تحمل باقة زهورها نفس الألوان.

متى تجمعن هكـذا منـذ تلـك الليلة؟حقيقـة لا تتـذكر، كانـت تلتقيهن.. نعم مـرات متفرقـة متباعـدة، وقفـت مـع كـل مـنهن عنـد خطبتها وزواجها لـم تترك شيء لـم تفعله، لكنها حقـاً فقدت ذاكرة هذه اللحظات المميزة، كالمجنونـة تبحـث بـين الـصور عـن تلـك اللحظـات التـي تلـت زواجهـا، لا توجـد صـور توثقهـا، تلعـن في سرها هذه التكنولوجيا الحديثة التي حفظت الذكريات داخلها.

تقف من الأرض عازمة الاتصال بهن والمطالبة بعودة ما مضى من زمن البراءة، بدأت مهمتها الشاقة فهي دائمًا تنسى أين وضعت هذا البغيض المسمى الهاتف المحمول، وأخيرًا وجدته لترتسم على وجهها إمارات السعادة وبكل عزم تحاول تنفيذ ما قرَّرته.

وكأن الخذلان رفيق لها هذا اليوم الذي بدا طويلًا لا ينتهي، ولا يرغب لها أن تشعر ببصيص أمل، الهاتف في حاجة لإعادة شحن وبالفعل وضعته في الكهرباء وذهبت تعد فنجان من القهوة تحتاجه الآن، لملمت في طريقها ما تبعثر من المكتبة ورتبتها في عجالة لتعود وتلتقط الهاتف في يد وفنجانها في الأخرى، وبمجرد إعادة تشغيله انهالت عليه الرسائل وإشعارات مكالمات فائته ومِنْ مَنْ؟ مِنْ مَنْ كانت ترغب في محادثتهم، فتحت الرسائل تقرأها بابتسامة لوَّنها الشغف، لتتوارى رويدًا رويدًا مع استمرار قراءتها ويحل محلها دموع وترتعش يدها الأخرى مُسقِطة القهوة أرضًا.

- **أين أنتِ؟**
- **لماذا هاتفكِ مغلق، ولا إجابة في المنزل؟**
- **لا تقولي أنتِ أيضاً؟**
- **نحتاجكِ؟**
- **سهى أُصيبت في حادث وفي المستشفى؟**

بيد مرتعشة اتصلت بإحدهن لا تعرف مَنْ فلم تركز حقًا في من تطلب، عرفت ما حدث بسرعة، اصطدمت شاحنة بسيارتها من جانبها ليلًا وقد عرفن صباحًا من زوجها، ومن وقتها يحاولن الاتصال بها، حالتها سيئة وتحتاج لنا جميعًا، هكذا اختصرت "سهر" الوضع كعادتها.

وبسرعة رتَّبت أفكارها اتصلت بأمها لتأتى تنتظر عودة أبنائها من المدرسة ثم اتصلت بزوجها شرحت له ما حدث في عُجالة وإنها ستكون هناك جوار من تحتاجها.

خطواتها مهتزة، تحملها أرجلها بشق الأنفس، لا تعرف كيف وصلت بهذه السرعة للمستشفى وهى تردد "**الدور الأول الرعاية المركزة**" كأنها جملة عليها حفظها، وقفت أمام المصعد ثواني قليلة لتبحث بعدها عن السلم لتلتهم كل درجتين معًا، وأخيرًا وصلت مبتغاها ترى سهير تدَّعي التماسك كعادتها تحتضن سهر الباكية في أحضانها وتجلس سحر في الكرسي المقابل لهن تحتضن جزعها بيدها وتهتز في حركة رتيبة للأمام والخلف وما إن شعرن بوجودها حتى رفعن وجههن نحوها يهمسن باسمها، لا تدرى مَنْ جرى إلى مَنْ، كل ما تشعر به هو

دفء حضنهن وقد تماسكن ببعضهن كالغريق الذي يتشبث بطوق النجاة.

- هل رأيتِ سما.. كدنا نفقدها.

- هزت رأسها نافية.. لا تقولِ مثل هذا الكلام سهر، نحن معها وسنظل حتى تستعيد كامل صحتها.

حاولت التماسك وإيقاف الدموع المنهمرة لتبتعد شيئاً فشيئاً عن دائرتهم وتنظر في وجوههن وتهمس.. اشتقت إليكن جميعاً.. كنت على وشك مهاتفتكن للقاء، ولكن القدر جمعنا.

- هل جمعنا أم بداية فراق؟ ألقت سحر عبارتها اليائسة وسطهن.

- بل صفعة، ردَّت بعزم عليها لتُكمل بعد أن جذبت انتباههن، نعم هي صفعة لنفق، لن ندع العمر يجرى بدون أن نسجل فيه ذكريات جديدة معاً، نسطر حكايات نحكيها لأحفادنا، ونجمع أبنائنا في صداقات قد تدوم مثلنا.

بدأت أعينهن تلمع بأمل في نجاة مريضتهم وابتسامات تخرج على استحياء مع تخيلهم لشكل حياتهن القادمة.

- والآن أرغب في الدخول إليها.

أجابتها سهير بهزة بالرأس.. ولكن عليكِ الانتظار فموعد الزيارة القادم بقى عليه نصف الساعة.

جلسن متشابكات الأيدي تلهج ألسنتهن بالدعاء وعندها فقط لاحظت عائلة سهى فأومأت برأسها لزوجها فهي الآن لا تستطيع أن تترك دائرة أمانها.

خطَّت تتحسس طريقها إلى غرفة الرعاية ترتدي الملابس الواقية فوق ملابسها، خائفة مما ينتظرها، فعلى الرغم من تأكيدهم لها أن الغالية في كامل وعيها وأن إصابتها مُغطَّاة بالكامل تحت الكثير من القطن والشاش بالإضافة إلى الملاءة إلا أن الخوف لازمها، خائفة أن تخذلها قوتها ولا تنقل لها الأمل

- سما.. حبيبتي اقتربي.. استوحشتك.

عندها خطت المسافة المتبقية في سرعة لتمسك يدها تُقبِّل رأسها وتهمس.. حمدًا لله.. حمدًا لله.. قدَّر ولطف.. وانهمرت دموعها لتُكمل لوحة الاشتياق واختلطت على وجهيهما.

اتفقن على تقسيم العناية بها في المستشفى فهن أخوة، رحلة العلاج طويلة ما بين عمليات جراحية ضرورية وعلاج طبيعي، كدن يفقدنها ليلة لولا تنبهن إلى اختناقها ظنن في البداية أنه بسبب كثرة الضحك لاسترجاعهن ذكرياتهن ولكن وجهها الباهت كأن

لا حياة فيه أنبأهن بالخطر لتجرى سهر تنادى الطبيب بينما تحاول سهير تدليك يديها القريبة وسما نفذت درس الإسعافات الأولية لتدليك القلب أما سحر فتجمدت مكانها تبكى وتدعو الله أن ينقذها، وبالفعل كل ما قمن به كان سببًا بعد الله تعالى في إنقاذها مرة أخرى ليتندرن بعد ذلك أنها عادت من الموت مرتين وكم أن الله يحبها ليمنحها الفرصة أكثر من مرة.

وأخيرًا أتى الفرج، وصرَّح لها الطبيب بالعودة إلى المنزل لتستكمل علاجها هناك، فالراحة النفسية للمريض أهم مرحلة قبل البدء في عمليات التجميل الخاصة بأماكن الإصابة، اتفقن على إعداد مفاجأة لها، فقامت كلٌ منهن بإعداد وجبة جاهزة للأيام القادمة بالمنزل، وفي تمام العاشرة صباحًا سمعت سهى طرقة على باب الغرفة بنغمة مميزة كن أتفقن عليها في صغرهن ابتسمت وهى تضحك قائلة " **ادخلن يا هوانم** "

ليُفتح الباب على مصراعيه كاشفًا بالون كبير كتب عليه باللغة الإنجليزية "**حمدًا لله على سلامتكِ**" ثم تظهر أربعة رؤوس من خلفه كلٌ منهن ترتدي قناع صارخين بنفس الجملة، لم تعد تستطيع التوقف عن الضحك فهذا ما كن يفعلنه عندما تمرض إحداهن ليدخلن الغرفة ويُلبسنها القناع الخاص بها

يلتففن حول سريرها في دائرة تمسك كل واحدة منهن كف التي تجاورها لتكتمل الدائرة.

" **اقسم بالله العظيم.. أن أحافظ على أسرار الهوانم، وأن أكون حاضرًا في أي وقت يحتاجوني فيه، وأعمل على استمرارهن وعدم تفرقهن**" تلون قسمهن القديم وانطلقت ضحكاتهن.. ليقمن بتوزيع ما احضروا معهم من طعام وحلويات على جميع من في الغرفة والممرضات بالدور، قطع جمعهم زوجها وقد أنهى إجراءات الخروج ويسأل إن كانت مستعدة.. سكون الغرفة أنبأه أن عليه الخروج وبالفعل بقين الخمسة بمفردهن ليجتمعن في دائرتهن يحتضن بعضهن البعض.. وهنا التمعت الفكرة في رأس سما لتهمس لهن بها.. ثم يضعن كفوفهن فوق بعضها البعض " **موافقة** ".

❀❀❀

ودَّعت أصغر أبنائها وهو يصعد إلى الحافلة المدرسية، واستدارت وبريق عينيها لا يخطئوه من يراه.. أخذت تدندن لحنها المفضل وهى تنهى إعداد قهوتها الصباحية بيد وتكمل إعداد الإفطار لزوجها باليد الأخرى.

جلست في الشرفة تستمتع بنسمات الصبح المبكر مع

رشفاتها الممتزجة برائحة الحبهان المنعش، نظرت في ساعتها وهبَّت على عجل فقد حان موعدها ارتدت ملابسها التي سبق أن أعدَّتها وخبأتها الليلة السابقة وضعت فوقها العباءة ولفَّت حجاب مناسب ولم تنس بعض رتوش الزينة كحل العينين ملمع الشفاة مع عطر خفيف.. نظرت لنفسها بالمرآة باستحسان واستدارت لهذا النائم إلى الآن هزت رأسها قبل أن تتوجه إليه لتوقظه.

"أحمد.. استيقظ لن أبقى جوارك ككل يوم حتى تنهض من الفراش"

رفع رأسه بتثاقل كأنه في غيبوبة لا يعي ما تقول.. تجاهلت تصرفه وأكملت

"تركت لك الإفطار وحضَّرت ملابسك وأعددت لك الحمام.. وسأغادر الآن"

كانت الإجابة هزة رأس قبل أن تعود إلى موضعها السابق على الوسادة تنهَّدت في تعب وخرجت غير عابئة فاليوم لن يعكره أحد هذا اليوم الخاص، تحمل في يدها حقيبتها وفي اليد الأخرى صندوق كرتون وضعته على المقعد الخلفي للسيارة وجلست خلف المقود وكتبت رسالة من كلمتين فقط " **في الطريق** "

فتحت إذاعتها المفضلة واتجهت إلى موعدها تغني وعلى

ثغرها ابتسامة نصر، صفَّت السيارة وصعدت السلالم القصيرة قبل أن تدق جرس شقة بعينها لتستقبلها صرخة فرح، تُقبِّل مستقبليها وتخلع الحجاب والطرحة لتظهر أسفل منها ملابسها المكشوفة القصيرة وتطلق شعرها من عقاله "**أنا جاهزة**"

الضحكات العالية التي رنَّ صداها في المكان جعلها تشارك في سعادة تفتقدها وتجدها هنا وسط صديقاتها منذ اتفقن على تخصيص يومـاً شهرياً للتجمع والانطلاق الإفطار والرقص والضحك وما يحلو لهن فهذا اليوم هو "**يوم الستات**".

يوم بنكهة مختلفة

الفستان الأبيض

خصلات بنية خالط بعضها البياض، بعض التجاعيد التي عرفت تتسلل إلى وجهها، عيون ذبلت بكاءً، هذا ما تراه في مرآتها كل ليلة وهي تمشط شعرها، ولكن مرآة روحها تُكذِّب كل هذا، تؤكد لها أن قلبها مازال يافعاً في العشرين من عمره، يناشدها أن تفتح هذا الدرج على يسارها، تسمع ندائه كل ليلة وتتجاهله، وضعت الفرشاة وبيد مرتعشة تقترب من المقبض وما إن لامسته حتى سحبت يدها تضمها إلى صدرها.. هي تخشى المواجهة.. تخاف رؤية الحقيقة وهذه المرة هي من خطَّتها بيدها وستقرأها عينيها وستسمع همسها بأذنيها "**أنتِ عانس**".

انتهى اليوم لتقطع ورقته من التقويم الحائطي وتضيفه على أيام عمرها التي مرَّت، لقد ذكَّرها أخيها كعادته بخطئها، وما يراه هو خطأ تراه هي وفاء، يلومها أنها لم تسمح لأحد بالاقتراب

منها.. أنها ظلَّت على وعد دُفن مع صاحبه منذ سنوات عدة.. أنها اختارت أن تعيش وحيدة بدلًا من اختيار شريك يؤنس أيامها ومن يعلم قد يكون أكثر من مجرد شريك وتحوِّله الأيام إلى حبيب ويبارك الله ارتباطهما بفلذات أكبادهما تنفعهما عند كبر السن.

تنهيده حارة شقَّت صدرها لتدفع كل الأفكار التي تجول في رأسها بعيدًا، تمنح نفسها الشجاعة لتمد يدها إلى هذا المقبض القريب منها لتفتحه بسرعة.. تناظر ما خبَّأت فيه.. صندوق أسرارها هكذا سمَّته.. صنعته بيدها يوم كانت الأحلام قريبة والأماني مُحقَّقة.. زيَّنته بالورود الوردية والشرائط الملونة وعطَّرته برائحة العود المفضلة لديه.. فارسها الوحيد حلمها المفقود.. داعبت أنفها تلك الرائحة التي كادت أن تنساها ولكن قلبها وعقلها خبَّأها في دهاليز روحها بعيدًا عن النسيان.. فما إن سارت بين جنباتها حتى عادت لها ذكريات تناستها.

تتوسط أرض حجرتها تبعثرت حولها صورهما في كل مناسبة جمعتهما.. تمسك بيدها أكثر الصور قربًا لقلبها يوم أعلنا للعالم عن حبهما وتوَّجوه برابط شرعي وعقد القران أمام الشهود من أهلها وأهله.. مُمسكًا بيدها كخائف على طفلته تتوه في

الزحام وابتسامة مرسومة على وجهه كأنه امتلك الأرض ومال عليها يهمس لها في أذنها بكلمات لم تنسها حتى الآن "بمجرد عودتي سنتمِّم الزواج لن أنتظر كما يطلب مني أهلك.. ولولا خوفي عليكِ كنتِ أصبحتِ في بيتي اليوم" لتخجل هي وتطأطئ رأسها ليزيد من ضغطة يده على أصابعها، صبيحة العقد كانت مفاجأته لها "يومٌ في الجنة" كما اتفقوا على تسميته.. اختطفها من منزلها بإذن من والدها يأخذها مدينة الملاهي ورحلة نيلية وبيده خطَّ أحلامهما في ورقة وطالبها أن تحتفظ بها حتى عودته.

تنبَّهت عندها، أين تلك الورقة؟! أخذت تبعثر في الصور يمينـًا ويسارًا كادت تجن وهى لا تجد لها أثر.. ثم أمسكت الصندوق لتتنفس الصعداء عندما وجدتها ملتصقة بالغطاء.

توسَّطت الصفحة كلمة "أحلامنا" ليبدأ أول سطر..... بيت يجمعنا.. ثم تتوالى الأحلام، رغب من الأبناء ثلاث ووضع بين قوسين إذا أراد الله لنا، وعدها بالحج والعمرة صحبة.. لم ينس رغبته في شراء سيارة لأسرتهما الصغيرة ثم وجدت ما خطته هي بيدها حلمها هي الوحيد بخطٍ كبير كي لا يُنسى "الفستان الأبيض" لتتذكر ضحكته وقتها ليجذبها بعدها في حضنه وهو يؤكد "هذا أكيد سأُحضر لكِ معي أجمل فستان قد تلبسه عروس يومـًا ".

أودعها أحلامه ووعوده وسافر على أمل الرجوع.. وأوفى بعهده.. عاد..مُسجى في صندوق لم تره أو تودعه فقط صدى كلماته عن مفاجأة يُعدها لها ظلَّ يتردد بصدرها، وكانت المفاجأة والفجيعة وألم شق الصدر وبات من الصعب رتقه.. ومن وقتها عاشت على الذكرى ترفض الجميع.. فلا أحد استطاع أن يملأ هذا الفراغ داخل قلبها، ولا أحد يستطيع فهمها، لا تستطيع أن تنكر أن حياتها لم تكن فارغة بل مملوءة بأهلها وأبناء أخيها العاشقة لهم ولصخبهم بعملها المثير الذي يُشعلها حماساً ويمنحها فرصة الاختلاط بالكثير من الناس والسفر والترحال هنا وهناك تمد يد عون لكل من يحتاجها وتحتضن في صدرها يتامى يفتقدوا الحنان.

نامت ليلتها تحتضن ورقة الأحلام وصورتها المفضلة، لتتقاذفها الأحلام.. فمرة تراه عائدًا من سفره تستقبله بالترحاب وأخرى في منزلهما يتجادلان على ألوان الحوائط وثالث يقدم لها هديته كما وعد فستان أبيض رائع الجمال لتفيق من نومها دون أن تأخذه منه، انهارت في بكاء مرير فهذا ما حدث بالفعل.. وعد ونفَّذ ولم تستطع هي الحصول عليه.

عزمت على تحقيق ما تمنت.. فمن قال أن الأوان قد فات لا يهم أن يكون متأخرًا المهم تحقيق الحُلم، نفَّضت عنها الحُزن والهم فهي في طريقها لتحقيق ما تمنَّت دومًا ورغب هو في رؤيته.. كيف لم يخطر على بالها هذا الأمر من قبل؟إنه معها يحيا في قلبها ويشاركها أنفاسها تشعر به كالغائب الحاضر، أعدَّت قائمة بما عليها فعله حتى لا تأخذها الحماسة وتنسى أي شيء.

اتجهت بادئ ذي بدء بحجز قاعة صغيرة وانتقت الأقل عددًا.. فلا داعي للسفه ولن يكون هناك أحد يشهد حفلها غيرها زهدت في كل ما قدمه مدير القاعة من مميزات تُزِيد الليلة رونقًا اكتفت ب "كوشة " مزينة بالورود ولاعب للأغاني وأرخص قائمة طعام.. ابتسمت وهي تُحدِّث نفسها سأفكر حينها ماذا سأفعل بمائدة تكفي خمسين فردًا، ساعد حجز القاعة على اختيار يوم لا تعرف إن كان من حُسن حظها أم من سوءه أن يكون قريبًا بمثل هذا القرب.. أسبوع واحد يفرق بينها وبين تحقيق الحلم.

أخرجت قائمتها لتُعلِّم على إنجاز مهمتها الأولى.. كانت الخطوة الثانية أيسر بكثير فمصففة الشعر خاصتها مُقرَّبة منها ستتحدث معها بصراحة وبالتأكيد ستتفهم موقفها وقد كان كما

توقعت تمامًا بل ووعدتها أنها هي من سيقوم بتصفيف شعرها ووضع الزينة لها وعرضت عليها أن ترافقها في رحلة البحث عن فستانها الأبيض على أن يؤجلا الموعد إلى الغد.. ووافقتها بسعادة افتقدتها لسنوات.

تجوَّلت بين المحال تستعرض التصميمات الحديثة والأسعار التي فاقت كل تصور لم ترغب في أن تُحرج أمام صديقتها الوفية لتحسم أمرها في نهاية المطاف أنه من الأنسب استئجار فستان بما يشتمله من احتياجات العروس.

❀❀❀

أعدَّت فستانها الأبيض.. حجزت القاعة واتفقت مع مصففة الشعر ومصور أفراح، وأصبح كل شيء جاهز لتحقيق حلمها.. قصدت المصففة مبكرًا كما أكدت عليها عاملتها كعروس حقيقية فاهتمت ببشرتها ودلَّلتها كما يجب أن يكون الدلال في ليلة كهذه، منحت شعرها بعض خصلات أفتح لونًا ليضيف عليه بعض الحيوية ثم رفعته لأعلى وما إن أنهت مهمتها قامت بوضع القليل من الزينة المناسبة لها لتساعدها بعد ذلك في ارتداء الفستان والتاج وطرحة انتقتها قصيرة.. وقفت بأعين دامعة تنظر لنفسها في

المرآة تكاد لا تصدق ما تراه لقد عاد الزمن وها هي تراه يقف خلف كتفها الأيمن مبهورًا بطلتها الرائعة لتفيق من حُلم اليقظة على أصوات الزغاريد وأغاني الفرح التي أنشدتها الفتيات والزبائن في محل صديقتها، لقد شعرت حقـًا أنها عروس وأن حبيبها ينتظر خروجها.

وسارت في الشارع وحيدة إلى قاعة الأفراح تحمل بين يديها فستانها تخشى عليه من الاتساخ تزين وجهها ابتسامة ثقة.. لم يعنيها كلام الناس ولا نظراتهم المتسائلة وإجابة وحيدة ترد بها على من يسأل عن العريس "لا يوجد عريس "، لمحها من بعيد، فجرى إلى محل الورود القريب اشترى باقة من الزهور وخرج يعدو خلفها ليوقفها بكلمة واحدة "عروسي " انتبهت والتَفتت تنظر من ينادي.. فوجئت بمن ينزل على إحدى ركبتيه يُقدِّم لها باقة من الزهور ويسألها بمنتهى الجدية "أتسمحين لي أن أكون عريسك الليلة "وعندما رأى نظرات القلق والخوف تنطق على وجهها أكمل "لن أدعك تسيري وحدك في الشارع سأمنحك فرحة الحفل فقط" ابتسمت لوجهه البشوش وأومأت بنعم.

سار بجوارها وسط تصفيق وغناء باقي الحضور ليمنحوها

زفة تليق بعروس حقيقية ودخلت القاعة وجلست في "الكوشة" مع عريسها المُزيَّف ومدعوين لا تعرف منهم سوى صديقتها المصففة..شعرت بسعادة حقيقية في وجودهم.. دقائق قليلة لتقف وتعلن " خلاص.. لقد حقَّقت حلمي" قابلتها نظرات استغراب وتعجُّب فابتسمت تشرح ببساطة " لم أكن أرغب في شيء سوى صورة بفستان زفاف أبيض.. كان حُلمي" ثم صحَّحت كلمتها بسرعة " حُلمنا معًا "

تمَّت بنكهة مختلفة

السنة السابعة

" السنة السابعة هي العام الأكثر خطورة في عمر الزواج " تقرأ المقال والابتسامة تُزيِّن شفتيها، تضعها جانبًا وتتناول هاتفها تكتب له رسالة بدأتها بعنوان المقال والعديد من الوجوه الضاحكة ثم أعقبتها بجملة " تعالى لنُريهم كذب نظريتهم" وأرسلتها وهي على يقين من إجابته.

كلمات أحمد شوقي كانت الإجابة " عندما رأيتكِ بحر.. ثقبت سفينتي" وأعقبها بجملة واحدة "دعيهم فهم لا يعرفون" ليتحول الحوار إلى تأكيد منه على حفل عيد ميلاد ابنتيهما ورغبته في إعداد حفلًا كبيرًا هذا العام، أنهت حوارهما ونظرت في ساعة يدها، حان موعده، لملمت في سرعة حقيبتها واتجهت إلى المعمل لتأتي النتيجة إيجابية كما تمنَّت.. تمسد على بطنها وتهمس "أنت هديتي له هذا العام" ثم اتجهت لتُتِم مُهمتها التي كلَّفها بها.. انتقاء كعكة تناسب الفتيات " أميراته" كما يحب أن يسميهم.

هكذا هو دائمًا، يعرف ما هي الكلمات التي تحتاج لسماعها والوقت المناسب لها.. لم يخذلها مرة، لا أحد يصدق

أن ضابط شرطة يكون بمثل هذا التفهم لها؛ ولكنها تعلم السبب.. فببساطة لقد نشأ معًا لا يوجد حدث في حياتها لم يشاركها فيه، يكبرها بأربع سنوات كانت كافية ليكن الحامي لها بحكم جيرة وصداقة والدتهما، يُشعِرها باستمرار إنها الأولى رغم أنه لا ينسى واجباته الأخرى.. إلى الآن تتذكر انتظاره لها على باب مدرستها في أول أجازة له بعد التحاقه بأكاديمية الشرطة وقتها شعرت بقلبها يكاد يقفز فرحًا لرؤيته ببذلته البيضاء ثم تذكَّرت والدته فلامته إنه آتاها أولًا لم يعاتبها بل ابتسم مبتهجًا وهو يجيبها أن أهله زاروه وقت الزيارة الأسرية وأنه هاتف المنزل بمجرد خروجه وأعلمهم أنه سيصطحبها من المدرسة ثم ادعى الغضب أنها لم تلحظ ملابسه الرسمية وهي من كانت تتمنى رؤيته بها.

عادت من ذكرياتها لتلملم أشواقها فقد كلَّفها بمهمة وعليها النجاح بها، فهي اطمئنت على هديتها المميزة لهذا العام والتي تعلم جيدًا أنها ستسعده، أنهت كل مشاويرها والسعادة تشع منها فما تمنَّته تحقق ولكنها لن تخبره حتى يكون هنا بين يديها.. تفاجئه هي على الرغم من كشفها مفاجأته.. "صدفة " صدقًا لولا أن شركة السياحة لم تستطع الوصول إليه لما عرفت بأمر الرحلة التي يُعدَّها لهما.

هاتفها ككل ليلة، وطلب التحدث مع ابنتيه ثم عاد ليحادثها أخبرته عن سعادتها أن مكالمة الليلة أطول من كل مرة، فأجابها إن لديه الوقت؛ وأوصاها أن تتذكره بالدعاء وأن تعوض البنات عن غيابه، تحوَّلت سعادتها لقلق وبدا واضحًا في نبرات صوتها، وعلى الرغم من تأكيده إنه حقًا لا يعرف لِمَ قال هذا الكلام هذه اللحظة بالذات إلا أنه لا يوجد سبب لقلقها فهذا الشهر هو شهرهما ربطهما الله فيه بكل السبل.. ولدا وتزوجا ورزقا بأجمل بنتين فيه.. فكيف تقلق وهذا الشهر هو منحة الله لهما، استودعته الله واستودعها وتركها تحاول طمأنة قلبها ووأد مخاوفها.

لا القلب اطمأن ولا المخاوف وُأِدت.. قامت فزعة قبل الفجر تتصبب عرقًا صدرها منقبض لا تعرف له سببًا، استغفرت ربها وأمسكت بهاتفها تحاول الوصول إليه.. ولا إجابة، أعاذت السبب لنومه.. اتجهت للوضوء وقراءة القرآن حتى موعد الصلاة لتصلي وتدعو الله أن يحفظه لها.

كررت المحاولة ولا فائدة، بدأت في إعداد الفتيات للمدرسة وقبل أن توقظهما سمعت رنته الخاصة على هاتفها.. أجابت بلهفة لتجد صوت زميله ينقل لها بصوت مرتجف مُغلَّف بالحزن خبر استشهاده في مطاردة لبعض المشتبه بهم، لا تدري

كيف أنهت المكالمة ولا كيف جلست على هذا الكرسي أمام التلفاز تبحث عن تأكيد الخبر، ترى صورته ولا تزال غير مصدقة، تعتقد أن في الأمر خطأ، انتبهت على صوت صغيرتها فأغلقت التلفاز بسرعة والتفتت لها لتُعِدها وأختها للمدرسة.. أوصلتهم بنفسها إلى الحافلة.. لتصعد الدرج في سرعة لتهاتف أخيها ثم أخيه ليؤكدا لها ما حدث وأنهم في طريقهم إلى المستشفى حيث يرقد الجثمان.

ذاهلة.. بأعين لامعة بدموع تسقط في بعض الأحيان.. تتناقلها الأيدي.. يضمها الجميع، تسمع همسات "شدي حيلك" فترد بتلقائية "الشدة على الله" ثم تأتي همسة أخرى "البقاء لله" ليقابلها "الدوام لله".. الكل حولها والوحيد الذي أرادته من بينهم غير موجود.. ترفع رأسها بمجرد أن تسمع اسمه يتردد همساً بين المعزين لتجد الوجوه كلها تناظرها تتنقل بينهم حتى تثبت على وجه أمها المتماسكة تحتضن أمه وشفتها تتحركان باستغفار لا يفارقها.. تعود لتتقوقع داخل نفسها تنتظر تغيُّر الحال.. اصطحبوها للصلاة.. سألت عنه بمجرد وصولها " لم يصل بعد "أدخلوها المسجد وتغيَّر همس التثبيت لهمسٍ آمر" صل ركعتين وادعي له" نفَّذت في صمت حتى سمعت صوت السيارات في

الخارج لتنطلق حافية من باب المسجد دون أن يستطيع أحد إيقافها.. طالبت برؤيته.. حاولوا إثنائها.. أصرَّت.. توسلت أخيها ثم انتقلت لأخيه تهمس بشجن "كل ما أطلبه نظرة أخيرة لا تحرموني منها يكفيني حرماني منه"وفي النهاية رضخوا لمطلبها.. فهي صغيرتهما، وقبل نزول النعش من السيارة صعدت إلى جانبه ومعها أخيها.. غُطيَّ الصندوق بالعلم فرفع جزء منه يكفي للوجه ثم كشف غطاء وجهه لتنهمر دموعها ويدها تكتم شهقاتها أعاد الغطاء وجذبها لتخرج.. لمست جانب الصندوق تهمس له" مفاجأتك هذا العام أكبر من مفاجأتي.. وداعًا" صدَّقت الآن أنه رحل بالفعل.

أيام وليالي العزاء طويلة لا تنتهي.. وأمامها أصعب مواجهه قد تفعلها في حياتها.. البنات وكيف تخبرهم، باتوا أول ليلة في أحضانها وعينيها لم تغفل للحظة تبحث عن ملامحه فيهما، قامت فجرًا للصلاة فأمسكت بهاتفها تطلب رقمه فقط لتسمع الرنين وهي تعلم أن الهاتف في هذا الصندوق الصغير المُلقى في زاوية الغرفة.. أتتها رسالة من صديقتها المقربة تطلب منها أن تصطحب البنات برفقة أولادها في رحلة تبعدهم عن المنزل قليلًا حتى تعرف طريقة إخبارهن.. هَمٌ جديد.. عليها إبلاغهن أن والدهم لن يعود وهنَّ من انتظر أجازته بفارغ الصبر.. ويعرفن أنه

يُعِد لهن مفاجآت خاصة بشهرهم كما يحب أن يسميه دائماً.. نصحتها أحد المعزين بالاتصال بطبيب نفسي للأطفال، فكل كلمة محسوبة وسيكون لها عظيم الأثر على مستقبلهن.. وقفت لتتناول الهاتف من يدها لتميد بها الأرض وتسقط فاقدة الوعي.

بنظرات زائغة وذهن مشوش بدأت تتنقل في وجوه الملتفين حولها لتناولها إحداهن كوب مملوء بالماء والسكر وتحثها على شربه وأخرى تسألها عن آخر مرة تناولت بها الطعام.. لتضربها عاصفة الانتباه المفاجئ وتضع يدها على بطنها بشكل تلقائي لحمايته.. وتهمس "أنا حامل ولم أضع في فمي سوى الماء منذ الأمس".. حلَّ الصمت على الجميع لا يعرف أحد هل يهنئها أم يزيد من جمل العزاء حتى صرخت أمها مطالبة بمن يساعدها في رفعها لتجلس على مقعد بدلًا من افتراشها الأرض، ثم تصدر تعليمات بإعداد طبق من الحساء الساخن فمعدتها لن تتقبل غيره الآن.

❀❀❀

مرَّت ستة أشهر على وفاته.. نفَّذت فيها تعليمات الطبيب النفسي واجتمعت في المدرسة مع المدير ومدرسات البنات شرحت ما على الجميع فعله في هذا الوقت الصعب.. حدثتهما عن أخيهما المُنتظر قدومه وطالبتهما بمساعدتها في انتقاء اسم

لـه.. سـتة أشـهر مـرَّت ومـازال قلبهـا ينكـر فقدانـه عقلهـا يـصدق ويعلم تمام العلـم أنـه أصبح في عـالم آخـر إلا أنهـا تتمنـى فقـط أن تـستيقظ يومـًا وتجـد أن كـل مـا مـرَّت بـه مجـرد كـابوس.. مؤمنـة راضية بقضاء الله وقدره إلا أن القلب الذي ترك جزء منه يُـدفن في التراب يئن ألمـًا يرغب في الاكتمال، تعلم إنه حي عنـد ربـه يـرزق فتناجيه سرًا بأحداث يومها.. تشكيه في بعـض الأحيـان أنهـا تعبـت مـن حفـلات التكـريم والتـأبين واستـضافات الـبرامج.. تعـده أنهـا سـتحاول ملـئ فـراغ وجـوده للبنـات فعلـى الـرغم مـن قـصر مـدة إقامته لعمله في محافظة أخرى إلا أنه لـم يغـب يومـًا عـن أحـداث حياتهما..أما عن الصغير القادم مسئوليتها الكبرى فقد جمعت كل مـا يخـص أبيـه مـن أخبـار وحكايـات رواهـا زملائـه عنـه في ملـف وسـجَّلت قـصتهما منـذ كانـا صـديقين في دفـتر واحتفظـت بكـل رسائله المكتوبة والصوتية ترغب في تعريفه كل شيء عـن الغائـب الحاضر في روحها، تبتسم وهي تقـرأ آخـر رسـائله لتقـول " كانـت السنة السابعة مختلفة لنا"

وقد كانت النكهة مختلفة..

المكالمة

أزعج نومها العميق رنَّات الهاتف الرتيبة، مدَّت يدها بتلقائية لتُجيب بصوت اختلط بالنعاس.

- **ألو.**

- ألف مبروك رقمك فائز في جوائز شركة الاتصالات بمناسبة مرور خمس سنوات على تأسيسها.

جذبها النوم مرة أخرى لتخطف سِنة سريعة لتفيق على صوت هذا المزعج الذي يصرخ في أذنها.

- ألو هل مازلتِ معي؟

- **نعم... ماذا تريد؟**

- أريد بياناتكِ وعنوانكِ حتى نُرسل لكِ المندوب بالجائزة.

- **جائزة ماذا؟**

- بمناسبة مرور خمس سنوات على إنشاء الشركة.

بعفوية وبدون تفكير للتخلص منه سريعًا أملته العنوان بالتفصيل واسمها والموعد الذي تُفضِّل التسلُّم فيه، سقط الهاتف من يدها دون أن تُغلقه لتستدير وتُكمِل نومها.

خالط الحلم حوارها السابق في الهاتف، لتنتبه حواسها كلها مرة واحدة بعد أن كانت تائهة بين اليقظة والنوم.

- ماذا فعلتِ؟ حدَّثت نفسها بلوم.

كيف أُعطى بياناتي في الهاتف لأيٍ كان، قد يكون نصَّاب أو لص، جلست في منتصف السرير يتملَّكها الرعب، تحاول أن تُرتِّب الأحداث وكل جملة قيلت في هذه المكالمة الغريبة التي روَّعتها، أضاءت المصباح جوار السرير لتتأكد من الوقت، إنها الثامنة مساءً، تبحث عن الهاتف ولا تجده مكانه المعتاد، هبطت على ركبتيها تبحث عنه ساقطًا على الأرض، لا شيء، بدأت تُلقي بالوسادات والأغطية حتى سمعت صوت وقوعه على الأرض.

قطعة حديد صامتة، شاشته سوداء ولا يظهر عليها أي بيانات، حاولت مرة وراء مرة قد تكون تلك السقطة أدَّت إلى تضرره، انتبهت أنه قد تكون "البطارية" بحاجة إلى إعادة شحن، تختفي الأشياء دائمًا عندما نحتاجها، حقيقة أكدتها لنفسها في رحلة بحثها عن الشاحن، شعرت أن كل الأمور ضدها، وقفت في منتصف الحجرة، أغمضت عينيها وأخذت نفسًا عميقًا علَّها تهدأ وتفكر بشكل صحيح، بعد مرات قليلة أدرك عقلها أن

التصرف الصحيح الآن هو إحكام غلق باب الشقة عليها، فهي وحيدة بعد وفاة والديها، وبالفعل اتجهت إليه لتُحكِم الإغلاق بالمفتاح والمزلاج، ثم قرَّرت أن تُضيء كل الأنوار، شعرت أن كل هذا لا يكفي فاتجهت لتفتح التلفاز وترفع صوته لتقصد المطبخ وتدير مؤشر المذياع القابع فيه.

لتضرب ذاكرتها مكان الشاحن المفقود، فتجري عائدة إلى حجرتها تفتش في حقيبة يديها وتبتسم بنصر وهي ممسكة به في يدها، أوصلته بالكهرباء ووقفت تحمل الهاتف في يدها تنتظر أي علامة على وجود حياة فيه، تهز رجلها بقلق، وتُحدِّثه كأنه شخص آخر موجود معها، تحايله حتى يفتح بسرعة ويُطمئنها أنها بأمان.

أغمضت عينيها على دموع تحاول الهرب من أجفانها، كيف خانها حرصها الدائم؟ لولا إرهاقها وحاجتها للنوم ما كانت فعلت ما فعلت.

انتبهت على صوت تنبيه الرسائل المتتابع بشكل سريع، بدأت تفتحها، كلها من نفس الرقم، إنه رقم تعرفه ليس غريباً عنها ولكنها لا تستطيع أن تعرف من بالتحديد، بيد مرتعشة بدأت تعيد الاتصال، تستمع إلى صوت الرنين في الطرف الآخر ولا أحد يجيب حتى انفصل الخط، أعادت المحاولة والدموع تتساقط من عينيها ووصل رعبها إلى مداه الأقصى.

قطع تركيزها في رنين الهاتف المميز طرقات شديدة على باب الشقة، ليسقط الهاتف من يدها وتسقط بجواره على ركبتيها في انهيار تام، تصرخ وتبكي ومع صراخها ازدادت طرقات ذلك الواقف على الباب صاحبه رنين الهاتف بشكل مفاجئ حتى صمت ليبدأ مرة أخرى.

بيد مرتعشة مدتها إليه، ولم تساعدها دموعها على رؤية المتصل رفعت الهاتف على أذنها دون أن تنبس ببنت كلمة لتسمع صراخه فيها.

- لماذا لا تفتحي الباب؟ هل أنتِ بخير؟

تضحك وتبكي في نفس الوقت، وقفت مستندة على الحائط وهي تشعر بالأمان تحركت حتى وصلت للباب تفتح تلك الأقفال التي سبق وأن أغلقتها بيدها وترتمي في أحضان أخيها ترتعش.

سحبها معه إلى الداخل وأغلق الباب خلفه ليجلسها إلى جواره على أقرب أريكة، تركها حتى أفرغت كل ما في جعبتها قبل أن يسألها:

- لماذا أغلقتِ الهاتف في وجهي عندما هاتفتكِ؟

نظرت له باستغراب وهي تحكي عن المكالمة والحوار وحالة الرعب التي عاشتها الساعة الماضية، بهدوئه المعتاد طلب

منها إحضار الهاتف ليراجعا معاً سجل المكالمات، لتجد أن آخر اتصال كان من أخيها قبل أن يغلق الهاتف وأن كل ما عاشته كان مجرد حلم.

وكانت نكهة مختلفة ولكنها مرعبة

الذبيحة

تُساق إلى المذبح ويسموه زواج.. يُعلنوا أن الزواج سكن ومودة ورحمة وهو ذبحها بسكين ثلم، بين خمسة رجال تجلس منحنية الرأس في انكسار وذل وهوان، ووجه منتفخ وعين مكدومة صُبغت باللون الأزرق، يجاورها أبيها برأس يماثل رأسها انحنائًا ووجه أسود لونه من الحزن، أما هو فترتسم إمارات السعادة والانتصار عليه بعد أن صَمَّ أذنيه عن صرخاتها وكبَّل يديها ليمنع حركتها وليغتالها ويغتال براءتها ويسفك شرفها.. لينالها ثانيةً بعقد شرعي..

همست"لا" عمَّ السكون والكل يناظرها لتقف مُنتفضة في تحدٍ "لا أقبل بالتسليم لقاتلي"، دفعت الكرسي للخلف ليقع أرضًا بدوي عالي وتلملم أشلاء نفسها وتنسحب وسط ذهول الحضور ودموع أبيها، ابتسامته الماكرة لم تزل من وجهه، أخفض رأسه قليلًا كمن يفكر، ليقف بعدها واضعًا يديه في جيبي سرواله ويتجه لباب الخروج، كمن حضر للتحية وأتمَّ أمره، سمع والدها يناديه بصوت متحشرج "انتظر، سأحادثها.. إنها، إنها.." ليقاطع كلامه بحده " لا يهم كثيرًا، سأنتظر لأجل خاطرك حتى تدخل إليها، سأنتظر هذه المرة فقط".

ليهرول العجوز منكسر يرجو أن ترضخ ابنته لطلبه وإلا لن يستطيع أن يرفع رأسه في منطقتهم، صحيح إنها ضحية ولكن ماذا يملك هو ليأتي بحقها..

طرقات تعرفها جيدًا جعلتها تعتدل في جلستها وتحاول أن تمسح دموعها المغرقة وجنتيها قبل أن يدخل أبيها، تعلم جيدًا سبب حضوره ولكنها لا تستطيع، تسمع كلماته عن ضرورة لا تفهمها وشرف تستعيده، وعقلها يُعيد عليها كل ما حدث، البداية كانت منذ عام عندما تقدَّم يطلب يديها وهي رفضت، ولكنه لم يقبل ب "لا" كإجابة لطلبه، ظل يتعقَّبها ويطاردها في كل مكانٍ تذهب إليه، حتى هدَّدها إنها ستكون له شاءت أم أبت.

يومها كانت كالفأر منكمشة علي نفسها في الزاوية، عينيه تلمعان بشر وابتسامة جانبية خبيثة على وجهه لا ترى غيره، يقترب ويقترب بلا مانع، والحضور كمشاهد لعرض حي لا يعينه شيء، سقطت أول قطرة علي وجهها لتعلن تصدع تماسكها، شبرٌ هو الفاصل بينهما على صوت تنفسها ولهج قلبها بالدعاء، وأنفاسه الحارة تصفع وجهها وفحيح كلماته السامة تتردد في أذنها، فتسمع صرخة قوية "قف" وتتقدم سيدة كبيرة السن تدفعه بيدها "لا تظن أنني أخافك لن أدعك تمسها" ووقفت بينهما بتحدٍ..

انطلقت ضحكات استهزائه ولكن كلماتها أيقظت الأموات المشاهدين من ثباتهم ليتحرك الجميع ويقفوا مساندين.

أفاقت على يد والدها تربت على كتفها " ماذا قلتِ يا ابنتي"، بعزيمة أكبر وكأن الذكرى منحتها قوة أعظم " لا قلت لا ولن أقبل به ما دمت حية" حوقل وهو يهز رأسه وما إن خرج على الحضور حتى انطلقت ضحكات فاجرة ممن فقد الحياء فقد عرف الإجابة وإن لم تُنطق ليقول بفجور "أنا قبلت فقط لأجل خاطرك عمي، ولكنها حقاً لا تناسبني" وتركهم ذاهلين من كلماته وخرج تاركاً صدى ضحكاته.

❀❀❀

عَسكر أمام منزلها يريد الاطمئنان عليها، فصورتها ملقاة غارقة في دمها المختلط ببركة مياه الأمطار لم تغب عن باله بل إنه يستيقظ كل ليلة من كابوس ما حدث تلك الليلة المطيرة، مسح وجهه يستغفر والصور تتلاحق أمام ناظريه كأنها حية الآن، عائد من مناوبته المسائية مُسرع الخطى لينتبه إلى تجمهر البعض، اقترب يفهم ما الأمر هاله ما رأى، فتاة ممزقة الثياب مكدومة الوجه مُلقاة أرضاً والكل يتسائل عن هويتها، لم يستغرق الأمر منه ثوانٍ ليخلع عنه معطفه ويقترب ليستر ما تعرى منها، صدمته برؤية الدماء لم تمنعه من إكمال ما انتوى، ثم صرخ فيهم مطالباً

بسرعة نقلها للمستشفى لإنقاذها ثم معرفة من هي، لتخرج عجوز من وسط الجموع وتتعرف عليها.

انتقلت تلك العجوز معها في سيارة الإسعاف وانطلق أحد الواقفين ليبلغ والدها وبلا أي تخطيط منه تبعها إلى المستشفي مع القلة التي قرَّرت الذهاب هناك، دخلت العمليات فور وصولها بعد إعلان طبيب الطوارئ عن نزيف قد يفقدها الحياة، ليلتقي بوالدها مهرولًا تجاه من يعرف من رجال، لم تتحمل قدماه وقع ما أبلغوه، ابنته أُغتصِبت وبين الحياة والموت.

زفر غاضبًا، فذكرياته تلك زادت اشتعال غضبه، فهو إلى هذه اللحظة لم يستطع استيعاب ما حدث، كيف لرجل أن يقبل أن يُجبر فتاة على القبول به بهذه الطريقة، قطع أفكاره رؤية ذاك المختال وهو يخرج من مدخل المنزل مزهوًا بنفسه يصفر لحن رتيب ويده بداخل سرواله والأخرى تمسك بسيجارة عرف من رائحتها أنها ليست عادية فرائحة دخانها تعلن عن ما تحتويه من مخدر، تبعه بدقيقة خروج المأذون بلباسه المميز ورجلين من الحي فهم من همهماتهم عدم نجاحهم في المهمة.

❀❀❀

منذ أن حطَّت تلك المصيبة على رأسها، أصبحت في ليلة وضحاها في حالة من عدم الاتزان، فقدت القدرة على تقدير

الأمور، فقد انتُهك آخر خصوصيتها التي حافظت عليها بلا تدخل من أحد، سُرق شرفها، عمرها، أحلامها، استقرارها وأمانها مع تلك الليلة، فهي ككثير من فتيات حيها منكسرة مطيعة لكلام أبيها بلا أي مناقشة لا رأي لها ولا هم غير أن يكون لها بيت تملكه، اكتفت بشهادة ثانوية فنية وحوَّلت موهبتها في تفصيل الملابس إلى مهنة صغيرة تعاون به في المنزل فراتب والدها من المصنع بالكاد يكفي ونجحت في أن يكون لها بعض الزبائن الدائمين.

رفعت يدها تمسح دموعها وهي تتذكر ما ألقته عليها أحداهما أثناء دخولها الحي مستندة على ذراع والدها " كيف سنُدخِلها منزلنا بعد الآن؟ إنها شُبهة". ولكنها لن تتراجع.

" القرارات الحاسمة تُتخذ في لحظة" وهو عزم أمره وخرج من زاوية الشارع متوجهاً إلى منزلها، طرق مرة واحدة الباب ووقف ينتظر، يحاول أن يستجمع شتات أفكاره، لا يعرف هل هي خطوة صائبة أم تسرُّع منه، لم تمر أكثر من نصف الساعة على خروج هذا القميء المزهو بنفسه، استعاد تركيزه مع فتح الباب ليظهر أبيها بوجه زاده الهم سنًّا وكتفان مهدولان ونظرة منكسرة، تجاهل كل ما قرأته عيناه ومدَّ يده للسلام، رحَّب به الأب فهو واحد ممن أنقذوا ابنته ورآه في المستشفى.

- لقد أتيت اليوم لطلب يد كريمتكم.

ألجمت المفاجأة لسانه ونظرات الذهول كست عيناه، لا يعرف بما يجيبه، ليجدها هي تخرج مسرعة من غرفتها صارخة..

- لا، أرفض التعامل معي بهذه الطريقة، لا انتظر إنقاذًا من أحد.

لمعت عيناه إعجابًا، تبهره دائمًا منذ المرة الأولى التي رآها بها، اصطدما على سلم منزله أثناء نزولها وصعوده وكادت تقع وعندما حاول مساعدتها نهرته، ومن يومها وهو يراها تتنقل كالفراشة السعيدة الحرة في الحي تؤدى عملها بإتقان والكل يتحدث عنها بإعجاب، تمنَّى وقتها أن تقبل به فقد عرف أنها ترفض الجميع ولكنه تأخر، تأخر كثيرًا حقًا.

ابتلع ريقه قبل أن يُكمل حديثه بهدوء استفزها أكثر " لا تتعجلي، لست مُنقذ أو أي شيء من هذا القبيل، مهرك سيكون قضية تستردي بها شرفك وبعدها لكِ أن تُكملي معي أو تتركيني...."

حاولت قطع حديثه فرفع يده أمام وجهها ليمنعها " لا ليس من السهل عليكِ أن تتقدمي بالقضية وحدكِ " تنحنح قبل أن تنكشف كذبته " ليس من الناحية القانونية بالطبع ولكن الحي وما تفعله الأقاويل"

تنظر لأبيها وعينيه ممتلئة بالرجاء لقبول هذا الحل وتنظر له لتجد نظرة تحدي يقابلها بها، التزمت بجموح كبريائها وأصرَّت

على الرفض، استدارت عائدة من حيث أتت، غير عابئة بمن تركت خلفها، التفت لأبيها يربت على كتفه ويومئ له بأن يصبر.

جلست خلف الستار في الظلام تتأكد من رحيله لن تمنحه الفرصة ليراها، لا تعلم من هذا الذي يضحى بسمعته من أجل إنقاذي، شعرت بصدق كلماته وكيف يفهم العقل ذلك وقد غُلف القلب بطبقة سميكة من الثلج لا تسمح لأحد أن يقترب، بداخلها غضب موجه للجميع، تدثَّرت جيدًا علَّها تنام فغدها طويل تُسلِّم فيه ما انتهت من ملابس.

تطرق الأبواب من باب لآخر، من يتجاهلها، ومن يفتح وما إن يراها يغلقه في وجهها حتى كان ذلك المنزل الأخير وقفت تنتظر الإجابة ليُفتح الباب وبنظرة يملؤها الاشمئزاز "ماذا آتى بكِ إلى هنا؟" وقبل أن تفتح فمها للإجابة مُدت يد رجل غليظة لتُبعد السيدة عن المدخل ويقف أمامها شبه عاري وبمنظر كريه يضحك ضحكة أرعبتها وهو يعلق على جملة زوجته "دعيها، لنتسلى قليلًا" خطوات قليلة للخلف استطاعت أن تأخذها قبل أن تلحظ تقدمه نحوها فألقت ما تحمل من ملابس في وجهه وجرت نزولًا تهرب منه.

تائهة وسط دوامة من الأفكار فقد تأكدت من قطع كل الآمال، تائهة لا تعرف أين الطريق؟، كطفل صغير ضلَّ الطريق من أمه، عيناها زائغتان، دموعها لا تجف، تجرى ولا تعرف إلى أين؟..سمعت من وسط السكون صوت من يُنقذها، إنه هو، كيف عرف مكانها؟ ولماذا دائمًا هو؟ حتى وسط حيرتها، تنظر حولها علَّها تجد مكان تختبئ فيه قبل أن يصل لها، شارع مسدود، وضعت يدها على الجدار وسندت رأسها عليه تُخفي وجهها ودموعها، صوت لهاثه واضح لها، نادى اسمها بخفوت.

لحظات حاولت استعادة نفسها قبل أن تستدير له، ممسك بحقيبة ملابسها التي ألقتها منذ قليل، صدره يعلو ويهبط بسرعة واضحة " لِمَا عيونه تملأها الدموع؟" حدَّثت نفسها ثم صرخت "فلترحل" هز رأسه نافيًا، فخطفت حقيبتها من يده وتخطته عائدة إلى منزلها لتلحظ تتبعه لها، نظرت له شذرًا رافضه ما يفعل أجاب سؤالها غير المنطوق " لا مفر، سأتبعكِ لن أسمح بمكروه يصيبكِ" باستسلام سارت أمامه فلم تر ابتسامة الفرح تعلو شفتيه لقد أعادها سالمة ولن يفقدها أبدًا.

تصبَّبت عرقًا تحاول أن تدفعه بعيدًا عنها، اختفى صوتها فلم تعد قادرة على الصراخ، تبحث بيدها عن نجدة حتى انتشلتها

هزات قوية وصوت أبيها في أذنها يرجوها أن تفق، ارتمت في حضنه تنتحب، تبحث عن آمان فقدته منذ تلك الليلة المشئومة التي ذهبت فيها لتُسلم عروس باقي ملابسها التي طرَّزتها بنقوش خاصة سبق وأن انتقتها، وفي طريق عودتها بأجرتها ومكافأة خصَّصتها لها والدة العروس لإجادتها العمل بشكل رائع تفاجأت بمطر كالسيل، أسرعت في خطواتها ليقاطعها بقامته الضخمة ورائحة الخمر تفوح منه كأنها عطره الخاص، لم يدع لها مجال للفرار من محيطه، حاول تقبيلها، دفعته فتلقَّت أول صفعة وكلما زادت مقاومتها له زادت وحشيته حتى تحولت للكمات وعند اقترابها من فقدان الوعي سمعت تمزق فستانها.

لم تفق إلا بعد أيام على سرير المستشفى بذراع مجبر ورأس تحيطه ضمادة، فقدت صوتها مع عذريتها، تحدَّثت دموعها عنها، طمأن الطبيب والدها أن ما هي فيه جراء الصدمة وستعود كما كانت، زاد نشيجها، فهي لن تعد كما كانت أبدًا، لقد سرق عمرها وليس شرفها فقط، هدأت بشق النفس مع صوت آذان الفجر، سمعت صوت أمها يبكى من الغرفة الأخرى لا تقوى على مواساتها اتجهت إليها، قبَّلت يدها ورأسها وحاولت بث بعض من الراحة المزيفة لها ابتسمت ابتسامة مكسورة ثم وضعت رأسها تنام على صدرها لبعض الوقت قبل بدء يوم جديد لعل وعسى يحمل جديد.

فشلت محاولاتها للتواصل مع زبائنها، الكل يتهرب منها وكأنها مصابة بمرض معدٍ، تنهدت بألم وهي تغطي ماكينة الخياطة بقطعة من القماش القديم وتجمع الأقمشة وما فُصِّل منها في حقيبة بلاستيكية وتكتب على كل منها اسم صاحبتها حتى تجد وسيلة لتوصلها لهن فهي أمانة لديها، أنهت مهمتها الأولى لتحمل الطبق الكبير الخاص بالغسيل وتخرج للشرفة لأول مرة منذ الحادثة، لا تعرف ماذا كانت تفعل لولا أبيها الحنون الذي أصرَّ أن يقوم هو بكل ما كانت تفعله حتى تُشفى تمامًا، سخرت داخلها وكأن الشفاء قادم لا يعرف أبي أن جرحي للأبد.

بشكل روتيني تمسح الحبال الممتدة بعرض الشرفة لتنحني تحمل أول القطع لتضعها عليه تفكر ويديها تعمل باعتياد فيما ستفعله لتسمع همهمات من إحدى النوافذ المقابلة لها وقبل أن ترفع رأسها أغلقت النافذة بعنف واضح، اجترت دمعها الذي تجمع وأكملت المهمة قبل أن تجرى لتعتصم في غرفتها، تشعر أن الجدران تنطبق عليها، مسجونة في بيتها حتى الشرفة ممنوعة فلا راحة لها فيها، لا تعرف أي ذنب جنت، دفعها تفكيرها إلى قرار ستنفذه رغم صعوبته عليها.

أسدل الليل أستاره فانسحبت من الجلسة مع والديها بدعوى النوم، وبقت في غرفتها تترقب خلودهما إليه، لم يطل

انتظارها ليصلها صوت خطوات أبيها وغلقه لغرفته، مدَّت يديها لتسحب حقيبة ظهر أعدتها في الصباح جمعت فيها بعض ما تحتاج إليه، فهي ستبتعد عن الجميع وإذا لم تنجح في بداية جديدة ستذهب إلى الموت بقدميها فحياتها بلا معنى الآن.

تحرَّكت على أطراف أصابعها، وأغلقت باب الشقة خلفها بهدوء مستخدمة مفتاحه، ووقفت متسمرة دموعها تجرى في طريقها المحفوظ على وجنتيها، سهل القرار صعب التنفيذ ولكن ما باليد حيلة، جفَّفت وجهها واستدارت تنزل الدرج بسرعة قبل أن تُغير رأيها، ألقت بكل شيء خلف ظهرها واتجهت لتخرج من شارعها وحيَّها بأكلمه، كادت أن تنجح قبل أن تلتقيه وجهًا لوجه، ينظر في عينيها نظرة لوم وعتاب وكأنها أخطأت في حقه هو، لا تفهمه حقًا أشار لها بالصمت وأن تتبعه، نفذت طلبه دون اعتراض ولا تعرف سببًا لذلك، ابتعدا عن المنطقة إلى مكان شبه خالي ولكنها لم تكن خائفة منه.

- هل تدركين عاقبة فعلتكِ الآن؟ سألها دون أن يستدير وينظر في وجهها؟

لبست ثوب الشجاعة وهي ترفع رأسها بتحدٍ تجيبه "وماذا فعلت؟ قررت أن أريح الجميع مني، لا أحد يرغب في وجودي، ولم أتسبب سوى بالأذى لوالديَّ"

التفت إليها غاضبًا " لقد قدمت لكِ الحل، تزوجيني ونبتعد"

انفجرت كبركان ثائر في وجهه تهتف متسائلة " لماذا؟ سبق أن قلت أنك لست منقذ فما هدفك وراء هذا؟ جسدي!" ضحكت ساخرة وسط نحيبها " لن تكون أول من يلمسه، روحي! فقدتها تلك الليلة وأعود وأفقدها مع كل نظرة احتقار تقابلني بها إحدهن وكل نظرة رغبة يرميني بها حقير منهم، كل ما يهمهم أن يبقى الأمر في طي الكتمان كما قال "شيخ الحارة" لأبي يوم آتى يقنعه بزواجي من ذاك الخسيس، ويدَّعي أن الكتمان لمصلحتي وسُمعتي" يرتفع صوت نشيجها وتسقط على ركبتيها تُخبئ وجهها في يديها.

اقترب منها دون أن يلمسها، جلس قريبًا منها همس "إهدي، لن أقترب أكثر ولكن اسمعيني..." صمت منتظرًا لحظة هدوء منها حتى يشرح لها قصته وما إن انخفض صوت بكائها حتى بدأ يحكي.

-"رأيتكِ قبل الحادث بأسبوع، لا أعلم إذا كنتِ تتذكري أم لا، لا أنكر إعجابي بكِ ولكن هذا ليس السبب، صمت برهة قبل أن يُكمل، أقسم لكِ أنني لن ألمسكِ وأن عقدي عليكِ هدفه الوحيد أنتِ" رفعت رأسها مستفهمة فأكمل "كانت أمي تعيش في قرية قريبة من المدينة ولها من الأخوات ثلاث يصغرنها، كانت

الصغرى ذات جمال مميز كما حكت لي عنها شعر أسود فحمي وبياض شاهق وعيون سوداء واسعة، تلفت الأنظار دائماً بروحها المنعكسة في عينيها، وفي أثناء عودتها من المدرسة ذات يوم اختطفها شاب من القرية واغتصبها في حقلٌ قريب، ولولا سماع صاحب الحقل صوت صراخها لم يكن أحد عرف بالقصة".

تنهَّد بحرارة أشعرتها بألمه وظلَّت صامتة حتى لا تقطع استرساله، رفع رأسه لتقابله عيناها الشغوفتين بمعرفة ما حدث فأكمل "وكان الحل الذي خرج به مجلس كبار القرية، أن يُصحِّح الشاب خطأه ويتزوجها، نقل جدي القرار لها وأخبرها أن العقد سيكون مساء نفس اليوم، رفضت حاولت أن تُفهمه أنها لن تقبل بهذا بكت، انهارت ولا فائدة في النهاية استسلمت وانسحبت إلى غرفتها، وأتى العريس الهمام في الموعد وذهبت أمي لتنادي عليها بأمر من جدي" توقف وهو ينظر إليها بعيون ملؤها الدمع.

"هل تتخيلي طالبها بالحضور والجلوس أمامه وكأنها لم تكن ابنته" أخفض رأسه يستعيد أنفاسه قبل أن يكمل "طرقت أمي عليها الباب لم ترد حاولت فتحه ولا فائدة سقط قلبها بين قدميها أن يكون أصابها مكروه، جرت إلى أبيها تستنجد به، نجحوا في كسر الباب ليجدوها مُلقاة على الأرض غارقة في دمائها

بعـد أن قطعـت شـرايينها، جـروا بهـا إلـى المـستوصف القريـب فالمستشفى يبعد ساعة بالسيارة، ولم تنجح محاولات إنقاذها".

صمتا معـًا، انسابت دموعها وهي تتخيل مصير كمصير تلك الخالة، قطع الصمت "لم يستطع جدي أن يستمر بالحياة في القرية مع إحساسه أنه السبب في وفاة ابنته فباع كل ما يملك وأتى للحياة هنا، وبالرغم من مرور سنوات إلا أن الأخوات لم ينسين الحكاية وظلَّت أمي تحكيها لي وتحذرني من الإساءة لأي بنت، لم أنس جملتها يومًا إذا أعجبتك فتاة تعال واحكي لي وسأخطبها لك"

استجمعت شجاعتها لتسأله " تتزوجني لتحميني من مصير خالتك أم تتزوجني لإعجابك بي؟"

علقت عيناه بنظرتها المستفهمة لا يستطيع أن يكذب عليها " إذا قلت لكِ الاثنين معـًا هل تصدقينني؟"

لم تجبه فاسترسل " إعجابي بكِ موجود ولم يغيره شيء فما حدث لا دخل لكِ به، وكنت شاهدًا على براءتكِ، وحتى لو لم أكن موجود فلا شك لديَّ فيكِ، ولكنني أريد أن أمنحكِ فرصة جديدة" التفت بكليته لها " اسمعيني جيدًا ثم خذي ما شئتِ من الوقت في التفكير، نعقد قراننا هنا في قلب حارتنا نُعلم به الجميع وفي ذات الليلة نرحل ومعنا والديكِ، هناك عرض عمل جديد في

مدينة أخرى نسكن هناك، لا أحد يعرفنا أو يعرف قصتنا ويعرف الجميع منذ أول يوم إنكِ زوجتي، نظل معًا حتى تستعيدي قوتكِ وروحكِ، فقط اطلبي مني الرحيل ولن أماطلك فيه".

هزَّت رأسها كمن يوزن الأمور بتريث، ليحثها " هيا بنا الآن، أعيدك قبل آذان الفجر ولا داعي أن يعرف أحد بقراركِ".

ثلاث أيام مرَّت منذ لقائها به، جافاها النوم من كثرة التفكير، إنه يفتح لها بابًا لحياة جديدة، صفحة بيضاء خاصة بها تخط فيها ما تشاء، تلقي وراء ظهرها كل ما حدث وتبدأ من جديد، لكنها لا تستطيع النسيان ولا تقدر على المسامحة وليست في حمل قضية ومحكمة يتحاكها الجميع ويعرف من لا يعرف بقصتها، قلبها يحثها على القبول، وعقلها يؤيد ببراهين للنجاح.

جلست تنتظر عودته من عمله فهي لا تعرف وسيلة أخرى لإبلاغه بقرارها، يداعب النوم أجفانها وتحاول مقاومته، لمحته على رأس الشارع فوقفت حتى يراها، تعلقت عيناه بوجهها، هزت رأسها بالإيجاب فابتسم ردًا على موافقتها ثم أخفض رأسه وأكمل طريقه.

بخطوات بطيئة أثقلها الهم اتجه ليفتح الباب، لا أحد يودهم منذ الحادثة " علَّه خير" حدَّث نفسه يُطمئن قلبه فآخر مرة طُرق بابه كان يحمل صاحبها الخبر المشئوم، فاجأه وجهه المبتسم يستأذن للدخول، ابتعد عن الباب وهو يوجهه تجاه الجلسة الصغيرة في إحدى زوايا المدخل، لم تتغير ابتسامته وإن ظهرت بعض إمارات الخجل عليه تنحنح قبل أن يبدأ حديثه مجددًا طلب يد ابنته شارحًا كل ما سبق وأن عرضه عليها، نظرة أمل ارتسمت في عينيه مع حيرة مناقضة على وجهه فقد سبق أن رفضته ابنته، أخرجه منها جملته.

- فقط اسألها عماه.

هز رأسه بلا حيلة وألف فكرة تخطر بباله ليقنعها بالقبول، فما يعرضه الشاب أكثر من زواج تسترد به شرفها، طرق باب غرفتها وقف أمامها مترددًا فقطعت عليه ترددده " أبلغه موافقتي أبي، لقد سمعتكما، ولكن لا أريد قضية فقط فلنرحل من هنا"، عادت الحياة إلى ملامح وجهه وهو يحتضنها مباركًا لها.

❀❀❀

انشغلت في جمع متعلقاتها ووالديها فأسبوعان وقت ضيق

جدًا للانتقال إلى بلد آخر، قطع انهماكها طرقات باتت تعرف صاحبها، فهو لم ينقطع عن زيارتهم ومساعدتهم منذ أن أعلن في الحارة خطبته لها، لا تعرف لما آتى الآن فهذا ليس من عادته أن يأتي وأبيها في عمله، ضبطت طرحتها وذهبت تفتح الباب، قابلها بابتسامه ثم قدَّم لها حقيبة بلاستيكية "هذا لترتديه غدًا في عقد القران، ليس فستان زفاف ولكنه فستان أبيض"

دمعت عينيها فخاف أن تكون فهمت أنها لا تستحق فستاناً للزفاف فأردف سريعاً " لم يكن معي ما يكفي لدفع ثمن فستان زفاف حقيقي.."

قطعت كلامه " أبكي لأنك لم تنس شيء، مهتم بكل التفاصيل، مُصر بالفعل على بداية جديدة حقيقية".

لم يُعقِّب، اكتفى بابتسامة واستدار عائدًا من حيث أتى.

كانت ليلة مختلفة أمضتها في جمع حقائب الملابس والأقمشة التي بقيت لديها وكل واحدة تحمل اسم صاحبتها، وضعتها جميعاً في إحدى الكراتين الكبيرة عازمة على تسليمها لشيخ الحارة قبل رحيلها ليرد الأمانات عنها، وأشرقت شمس الصباح بأمل يلوح في صدرها، صوت الاستعدادات أمام مدخل منزلها وصلها كموسيقى جميلة، لقد أصرَّ على عقد القران في

قلب الحارة، لبست الفستان الأبيض الذي اشتراه لها وانتقت طرحة بلون السماء لترتديها معه، كانت مستعدة مع أول طرقة لأبيها على باب غرفتها.

رافقها حتى الطاولة المُعِدة، يجلس حولها أربعة رجال في انتظار وصولها، تستند إلى ذراع أبيها مرفوعة الرأس، أدارت رأسها تنظر للمحتشدين أمامها حتى التقت عيناها بعينيه ليومئ لها برأسه ففهمت قصده لترتسم ابتسامة نجاة على وجهها.

وكان زفاف بنكهة مختلفة

جرح غائر

تتململ في نومها، لتفيق مرتعبة من كابوسها اليومي، مرَّ شهر على بدئها لحياة جديدة، عمل جديد، وأناس جدد ومازال هذا الكابوس يرافقها، تناولت كوب من الماء جوارها ارتشفت القليل، تفحَّصت الساعة لتجد أن موعد استيقاظها اقترب؛ فقررت أن تستعد لعملها.

دائرة مُفرغة أصبحت تدور داخلها تبدأ بدعوة أمها أن يرزقها الله بمن يعوِّضها ما خسرته يعقبها همسات حارس العمارة وزوجته يظنان أنها لا تسمعهما إلا أن كلمات الشفقة الصادرة منهما تصيبها في مقتل، لتكون المسافة من البيت إلى محل عملها فترة راحة من كل هذا حتى تبدأ جولة جديدة من نظرات بعضها يحمل تساؤلات فضولية والبعض الآخر تتفحصها كسلعة مباحة للجميع، نسوا جميعًا حدود حريتهم وكرامتها التي تُسفك أمامهم وإنسانيتها المهدورة.

تنفَّست الصعداء عندما وصلت إلى مكتبها اليوم ظانه النجاة بما تبقى منها، لا تعرف إلى متى تستطيع الصمود، "مُطلَّقة" لقبٌ وُصمت به وأصبح كتهمة يعاقبها عليها المجتمع، فهي من فشل في إقامة حياة مشتركة ناجحة، ضحكة استهزاء ترن داخل عقلها هي الجاني والمسئول الأول عن هذا الفشل دون أن يعرف أحد سبب انتهاء العلاقة، نسى الجميع أن تلك الحياة لها طرفين والمرأة في أغلب الأحيان تكون هي المغلوب على أمرها، وهي خير دليل على هذا ظُلمت مرتين، مرة مِنْ مَنْ استأمنته على حياتها ونفسها والثانية من المجتمع، لتتوقف سفينة الحياة بها في منتصف الطريق لا يسمحوا لها بالمرور وتجاوز كل ما حدث.. أفاقت من فقاعة عزلتها النفسية على نداء زميلتها بالمكتب تنبهها إلى الهاتف جوارها لتجيب في سرعة ملبية استدعاء المدير لها.

وقفت تُهندم ملابسها لترافق خطواتها بعض الغمزات واللمزات التي لم تلحظها.

❀❀❀

تمسك بيدها الدعوة حائرة، هل تنفذ طلب المدير بالحضور لم يكن طلبًا حقيقيًا بل أمر صيغ في شكل طلب مهذب، ماذا سيحدث إذا تجاهلت الأمر برمَّته ولم تذهب؟ وستجد ألف عذر

لتسوقه له اليوم التالي، ولكنه أشار أن لها دور في هذا الحفل، دفع الفضول حماسها لتستعد فقط لتعرف ما هو هذا الدور، خزانة ملابسها خالية من ملابس مناسبة لمثل هذه الحفلات فقد خرجت من بيت زوجها العتيد بما ترتدي من ملابس نوم تاركة خلفها كل شيء لتنجو بنفسها، زفرت بحرقة تطرد الذكرى التي اقتحمت عقلها، لا يوجد الوقت الكافي للبحث وشراء ما يناسبها ابتسمت وهي تتناول هاتفها لتطلب صديقتها تسألها عما لديها من ملابس يُمكنها استعارتها، ونجحت فى تحقيق المعادلة زي أنيق لا هو رسمي ولا يناسب سهرة من الأزرق الغامق يمنحها وقار تختبئ خلفه هذه الأيام.

تقدَّمت بخطوات مرتعشة نحو قاعة الاحتفال تحمل حقيبة يد صغيرة وظرف الدعوة الذي حُدِّد فيه الطاولة الخاصة بها يرافقها بعض الزميلات في العمل بصحبة أزواجهن، ألقت التحية وجلست صامته تتطلع على الحفل والحضور من حولها إلى أن التقطت أعينها نظرات اتهامات لا تعرف لها سببًا ممن ترافقهم، ذابت خجلًا لا تعرف ما عليها فعله ثم قررت الفرار والاختباء في دورة المياه وأحكمت إغلاق بابها عليها، تجلس بهدوء تعُد الدقائق على ساعتها، تحاول اختيار وقت مناسب للخروج من مخبأها وتحية مديرها والرحيل فيكفيها ما شاهدت من الحفل.

سمعت وقع أقدام ثم صوت ضحكات علمت منها أنها لمرافقتيها على الطاولة، كتمت أنفاسها وهي تستمع إلى اتهاماتهن لها أنها تسعى للخروج بعريس جديد من هذا الحفل، فعليها إنقاذ نفسها والارتباط برجل يحميها من المجتمع وعليهن إبقاء أعينهن يقظة ويحمين بيوتهن وأزواجهن فلن يفرق معها أن تكون زوجة ثانية.

انهارت في بكاء صامت كاتمة صوت نشيجها بيدها، حاولت استجماع نفسها وقوتها لتخرج تقف أمام المرآة تضبط من مظهرها وتمسح آثار الدموع، فلا يجب أن يشعرن أنهن نلن منها، عادت إلى القاعة بحثت عن المدير الذي عرَّفها ببعض الرجال حوله لم تعرف منهم أحد ولم يعلق بآذانها أي اسم فقط أومأت بتحية برأسها لتعتذر عن استكمال الحفل وتعود لمنزلها.

❀❀❀

فوجئت أمها بعودتها المبكرة، فشلت في معرفة سبب تغيُّر حالها، تحجَّجت بصداع رأسها لتنسحب إلى غرفتها ملاذها الآمن تتحصن بها من كل ما واجهته اليوم، إنهن يظنها تبحث عن رجل يحميها ألا يعرفن أن كل ما هي فيه سببه رجل.. رجل أهانها وجرحها بدلًا من أن يحميها، لقد سعت للحفاظ على بيتها لمدة عام ونصف العام ثم حاربت لأجل حريتها نصف عام آخر، ألم يتسائل أحد لِمَ فعلت كل هذا؟!

كانت كالفراشة في أوائل العشرينات تحمل كل الأحلام الرومانسية عن الزوج والحبيب والأسرة الصغيرة التي يكوناها معًا، ليأتي فارسها زميل لها بالعمل أعجب بها منذ أول يوم لها بل وصل به الأمر أن يسير خلفها ليعرف محل سكنها ويطلب الحديث مع أبيها طالبًا منه يدها، وهي بكل رومانسية صدَّقت، صدَّقت حبه من أول نظرة، صدَّقت جنون عاشق يفعل ما لا يقبله عقل، وصمتت كما يجب على عروس خجلة أن تفعل، تحريات بسيطة عادية سأل عنه أبيها في محل عملهما ومنطقة سكنه ليطمئن من سمعته وأنه من أسرة كريمة لتتم الخطبة ليبدأ في سرد أوامره.

فهو لا يرغبها تعمل بعد الزواج، لم تهتم فهي أميرته وهو سيدلِّلها، اختار شقتهما بعيدًا عن منطقتي سكن أسرتيهما، وما الداعي للقرب فهو سيغنيها عن الكون، وأخيرًا الزواج خلال ستة أشهر فبالتأكيد هو لا يستطيع الاستغناء عنها، انشغلت فيها بشراء ما يلزمها وإعداد بيت الزوجية ومصالحته بعد كل جولة شرائية مع صديقتها فهو لا يرغب في هذا القرب ولا هذه الصداقات "الزائفة" كما يسميها، وأتى يوم الزفاف، اليوم الذي ودَّعت فيه عالمها كما كانت تعرفه، تركت خلفها الأصدقاء والأهل وكل الأحباب.

شهر عسل لمدة أسبوعين في إحدى المدن الساحلية أغدق عليها كل المشاعر والحنان والحب وهي صدَّقته وغرقت في حبه، حبًا صادقًا بلا حساب فهي من انتظر طويلًا هذا الفارس العاشق لها، لتعود بعدها تواجه شخص آخر غير ذاك الذي كان خلال الأسبوعين المنصرمين، يرفض كل زيارات المباركة من أي أفراد الأسرتين وبالطبع الأصدقاء، غير مسموح لها بالخروج من المنزل سوى برفقته ونادرًا ما يحدث هذا، حتي طلبات المنزل هو يشتريها.

أول صدام عندما اتصل ووجد هاتفها مشغولًا، لتواجه إعصاره الغاضب وصراخه عليها الذي انتهي بأول صفعة حتى بعد معرفته أنها أمها تطمئن على أحوالهما، سقطت أرضًا ليتركها ويغادر المنزل، ويعود بعد منتصف الليل يحتضنها وهي مصطنعة النوم يرجو منها السماح فهو يغار من الجميع وهي له وحده، وسامحته لأنها صدقت كلامه المعسول، والمرة جرَّت مرة والسبب مختلف في كل مرة حتى علمت بحملها.

طارت من السعادة وظنَّت أن هذا ما سيقربهما أكثر وسيزيل الشكوك من رأسه، صدمها أولًا برد فعل جامد وشحوب وجه كأنه لم يكن يحلم بطفل يربط بينهما، حرصت من وقتها اجتناب غضبه فلا ترغب أن تتسبب في أذية لابنها الصغير بتهور منها

وصلت بسلام لشهرها الخامس وبدأت تشعر بالركلات الصغيرة ومع كل ركلة تمسد على ابنها وتكلمه أن يبقى هادئًا مطيعًا حتى لا يُغضب أبيه، استيقظت ليلة تصرخ من الألم لا تعرف له سبب ترجته أن يأخذها لأقرب مستشفي، كاد ألا يفعل إلا أن مكالمة من والدتها شعر قلبها بالخطر على ابنتها دفعه لإبلاغها أنهما في طريقهما للمستشفي.

وهناك وقفت عائلتها بتوتر أمام غرفة العمليات في محاولة من الطبيب إنقاذ الجنين من نزيف قد يودى به، ألسنتهم تلهج بالدعاء لها ولابنها، وهو يجلس في صمت كأن من بالداخل لا تعنيه، ليخرج الطبيب يعلن أسفه عن عدم قدرته إنقاذ الجنين ولكنها ستكون بصحة جيدة وسيعوضهما الله خيرًا، نشيج أمها واحتساب أبيها لما فُقد وبكاء شقيقتها هذا هو الصوت السائد في ممر المستشفي أما هو فقد انطلق إلى المقصف يشتري العصائر والمشروبات الغازية ليفرقها ابتهاجًا على وفاة ابنه.

❀❀❀

صدمتها فاقت الوصف، لم تعرف بما فعل من أحد من عائلتها بل من تهامس الممرضات بإشاعة أنها حملت منه دون زواج فاضطر أن يتزوجها زواج سترة وقد أنجاه الله منها، جرح

غائر بقلبها هذا هو ما تركه داخلها لم تسع لتبرر أو تشرح فيكفيها ما حدث، حمدت الله على إصرار والديها أن تعود معهما لمنزلهما ليعتنيا بها في فترة نقاهتها، عادت بعدها وقد ألقت عنها ثوب الخنوع والاستسلام ومع أول مواجهة لهما صرخت ومنعته من ضربها وهددته، ولأول مرة يستدعي أبيه وأهلها ليُشهِدهم عليها وأنها المخطئة في حقه وكيف تحملها طوال عام من زواجهما ليدللها أشهر حملها، يتكلم وعينيها تجحظ من الذهول عن من يتحدث ويحكي، إنه يروي حياة لم أعشها، ومن دلَّل واعتنى، أنه بالتأكيد مريض نفسي، حمدت الله أنها حكت لأمها بعض ما كان يحدث لتوقف كذباته أمام أبيه.

أغضبته.. وهو عند الغضب يرفع يده ليلطم من أمامه، أدركت هذا بسرعة لتحاول حماية أمها من هدر لكرامة لن يشفيها شيء لتطلق صرخة قوية عالية وهي تتناول أقرب زهرية من الكريستال تحاول دفعها نحوه لتصطدم بالأرض جوار قدمه ويعُم السكوت بعدها.

أفاقت من صدمتها لتجد نفسها تقف خارج باب الشقة يسندها والديها من كل جانب وشقيقتها وزوجها يحاولا إقناعه أن يفتح الباب ليأتيا لها ببعض الملابس وحذاء فهي تقف بقدمين

مدممتين مصابتين بالزجاج مرتدية إحدى منامتها البيتية، ولم يأتي كل هذا بنتيجة ليحملها زوج شقيقتها إلى نفس المستشفى التي فقدت بها ابنها ليُشخص الطبيب الحالة بانهيار عصبي استلزم حقنها بمهدئ، وبعد إفاقتها صمَّمت على استرجاع حياتها وإخراجه منها مهما كلَّفها الأمر، والآن تأتي بعض النسوة اللاتي لم يعرفن من الحياة سوى جلسات النميمة ليقررن عنها ويتهمنها تهمًا باطلة، لا لن تعود للوراء أبدًا، لن تدفن رأسها في الرمال ستواجه وستبني نفسها.

أشرقت نفسها مع إشراقه يوم جديد، على الرغم من عدم حصولها على قسط كافٍ من النوم إلا أن النشاط يدب في جسدها وروحها بتناغم عجيب، زيَّنت وجهها ابتسامة ثقة وخرجت من المنزل بعد أن قبَّلت رأس ويد والدتها وأخذت دُعائها بنظرة أخرى غير تلك الحسرة التي كانت تعتبرها دومًا وراء كلماتها، مظهرها الجديد دفع الحارس وزوجته للابتسام دون أن يخرج أي حرف منهما، وفي طريقها إلى العمل هاتفت منقذتها الدائمة صديقتها الصدوق تبلغها آخر قراراتها ورغبتها في مساعدتها فهي تحتاج إلى جولة شرائية جديدة وختمت المكالمة "لقد قرَّرت الحياة".

تخطو خطوات واثقة داخل الشركة، رأس مرفوع وابتسامة ثابتة واثقة تواجه بها العيون، ترشق ظهرها الهمسات، ظلَّت ثابتة في مكانها بعض الثواني القليلة ثم استدارت متجهة إلى طاولة الاستقبال سحبت مكبر الصوت وأعلنت بنفس النبرة الهادئة عن شخصيتها الجديدة "أنتم تعتبرون أني تخلَّيت عن مسئولياتي، ضعفت، جبُنت، لم أحارب بما فيه الكفاية للحفاظ على بيتي، تشيرون إليَّ لمجرد كوني امرأة فعلي أن أتحمل تبعات طلاق طالبت به وحاربت حتى نجحت في الحصول عليه.

تنصبون المحكمة وتكونوا أنتم القضاة فيها، صمتت تلتقط أنفاسها المتلاحقة، وعينها تتجول في الوجوه حولها، وهدأ صوت تنفسها لتُكمل.. أعتذر، ليس من حقكم محاسبتي فأنتم لم تكونوا معي ولم تحيوا حياتي، أعتذر فليس من حقكم معرفة أسبابي، أنا لست فاشلة بل أنا محاربة قوية وأول من أحارب هو نفسي وضعفها وخذلانها أمامكم، من اليوم لن أسمح لأحد أن يلوك اسمي أو سمعتي بكلمة مشينه، من اليوم أنا قررت أن أحيا حياة جديدة أخُط سطور حكايتها كيفما أشاء، لن أتوارى خلف زواج جديد لأحمي نفسي من قيل وقال بل سأعيد تقيم حياتي واختياراتي السابقة حتى أتفادى الخطأ في القادم من الأيام".

تركتهم كأن الطير على الرؤوس، واتجهت لمكتبها بذات الابتسامة الراضية عن نفسها، غافلة عن عينين راقبتاها بإعجاب لشجاعة اختفت في زمننا، أتمَّت عملها وفي موعد الانصراف التقت صديقتها التي كانت سعيدة أكثر منها بتلك الخطوة المتأخرة كثيرًا، على طاولة غذاء اقترحت عليها الانضمام إلى صالة الألعاب الرياضية بالنادي فهناك الكثير من الفصول بمواعيد مختلفة تناسب الجميع وهي فرصة جيدة لتلتقي بأشخاص جُدد، تحمَّست للاقتراح ونفذت قبل شراء ملابسها الجديدة.

❀❀❀

ستة أشهر مرَّت، تغيَّرت فيها خارجيًا وداخليًا، أصبحت ملابسها ذات ألوان أكثر إشراقًا، سعادتها تنبع من داخل قلبها فتوزعها على كل من حولها، معاملة زميلات العمل تحسَّنت ولكنها حرصت على وضع الحدود بينهم فلم تنس طعناتهن في ظهرها حتى الآن، ما يراه أمامه من تغير ملحوظ دفعه لخطوة أجَّلها كثيرًا حتى يجدها أقوى مما قبل، وهي الآن نجحت في استعادة الأرض الصلبة تحت أقدامها، كل هذا يزيد شعوره بنشوة الانتصار فهو يريدها قوية تتخذ قراراتها ليس عن اضطرار بل عن رغبة وثقة.

اتصل بهاتف مكتبها يستدعيها إليه، استغربت في البداية فلا عمل بين إدارتها وإدارته ولكنها دفعت كل الظنون بعيدًا واتجهت متسلحة بشخصيتها الجديدة، طرقت الباب بهدوء ودخلت ليرحب بها من مكانه خلف المكتب ويشير إليها لتجلس أمامه، مقدمة طويلة عن كيف رآها من أول يوم وتجاهُلها له يوم الحفل حين عرَّفه المدير عليها ثم خطبتها العصماء التي رفعت من شأنها داخل قلبه، واليوم هو يراها قادرة على التفكير السليم واتخاذ خطوة جديدة وهو يعرض عليها طلبه الارتباط بها ولها كل الوقت في التفكير ولن يؤثر هذا على علاقة الزمالة بينهما.

تنظر له صامته فقط يتلون وجهها من الشحوب إلى الاحمرار تباعًا لدرجة أخافته أن يكون بها علة ما أو أنه تسبب بضيقها، ولكنها فاجأته بوقوفها أمامه بذات الهدوء الذي تتعمده في حديثها تخبره أن طلبه سيكون محل تفكير طويل وعندما تصل إلى قرار ستخبره به، هذا إذا كان لديه الوقت لينتظرها، ابتسم فقد فهم ما ترمي إليه من كلمات، لا اعتراض عليه ولكنها حاليًا ترغب في التريث قليلًا، ولكنها تفتح للحياة ذراعيها لتشفى تمام الشفاء.

واستطاعت الوصول لنكهتها المختلفة

لحظة إفاقة

سافرت مع أفكارها ويدها تعمل بسرعة وتناغم على غسل الصحون.. تحاول أن تفكر في هدية تقدمها له فقد اقترب عيد زواجهما السابع.. تسائلت ككل مرة عن حكمة صفاء ذهنها أثناء آداء مهمة التنظيف تلك ولم تصل بعد إلى إجابة.. فزعت على اعتقال خصرها بين يديه وهمساته في أذنها " من يشغلكِ عنى؟ "

ابتسامة خجلة رافقت قبلته على وجنتها المتشربة بالحمرة "أبدًا أُنهي ما ورائي من أعمال وأفكر في المتبقي "

استمر يُمطرها بالقُبلات وهو يسأل " ويا تُرى أنا موجود على قائمة أعمالكِ؟ "

تحاول التركيز فيما تقوم به يداها وتحاول تجميع شتات أفكارها لتجد الإجابة الصحيحة " أنت... "

وتضيع باقي كلماتها في قُبلة جديدة " أنا ماذا؟ "

تغلق الصنبور وتغمض عينيها وتأخذ نفس طويل وتستقيم وتسأله " أيمكنك تركي فقط خمس دقائق أنهي ما ورائي وسأجيبك على كل تساؤلاتك؟

نظرته امتلأت حب سرحت فيها لدقائق لتفاجأ بصوت المياه ويده تمسك يدها وهو يقول " دعينا ننهيها سوياً "

وعلى عكس ما توقعت، أدى المهمة بمنتهى الجدية دون مشاغبات جديدة منه، وما إن فرغا من تجفيف آخر قطعة.. وقف ينظر إليها نظرة امتزجت بها الجدية بشقاوة تحبها.. ليسحبها من يدها خلفه ويجلسها على كرسيها المفضل بغرفة المعيشة ليقبل قمة رأسها بعمق ويهمس جوار أذنها أغمضي عينيكِ.. تنظر له متسائلة فيشير لها بعينيه أن تفعل ويستدير إلى المكتبة ويعود يخبئ شيئاً خلف ظهره.. وينظر لها معاتباً " ألم أقل أغمضِ عينيكِ؟ "

فتسارع وتضع يدها على وجهها تخبئ عينيها وابتسامة سعادة ارتسمت على وجهها.. فها هي المرة الأولى التي يقدم لها هدية ومفاجأة.. نمى إلى أذنيها صوت ورق ثم همسته "افتحيهما حبيبتي".

اتسعت عينيها دهشة إنها تذاكر سفر بالطائرة.. نظرت متسائلة.. فأجاب بصوت يتراقص في سعادة.." كل عام وأنتِ بجواري إنها هديتي لكِ هذا العام سأعوضكِ عن شهر العسل الذي لم استطع تقديمه لكِ.. خمسة أيام بمدينة الغردقة.. ما رأيكِ"؟

قفزت تتعلق برقبته تعانقه في سعادة والدموع تنهمر من عينيها لا تصدق حقًا ما سمعت لتهمس في أذنه " أحبك.. أحبك جدًا " شعرت بيديه تزيد من ضمها إلى صدره ولم تر عينيه التي أغمضهما في ألم بادي.

خمسة أيَّام عاشتها في الجنة..فالجنة بمن فيها كما يقال دائمًا.. وهي رأت جنتان..جنة قربه وجنة روعة خلق الله في ما أبدع لقد أحسن حقًا انتقاء منتجع هادئ بإطلالة خلابة على البحر الأحمر ولَم يترك فرصة إلا واستغلها ليمتعها.. رحلة على الدراجة خلفه في الصحراء.. الغوص في أعماق البحر ممسكة بيده في خوف تبهرها ألوان الأسماك والشعب المرجانية تنهدت وهي تضم عضده الممسكة به أثناء رحلة عودتهما تهمس له ليت الخمسة أيَّام لم تنته بهذه السرعة..

ربت على يدها وهو يؤكد لها سنكررها كثيرًا همست بجوار أذنه وهي تسند رأسها على كتفه..أحبك كثيرًا لتغيب في دنيا الأحلام على رغم قصر الرحلة فهي من أصرَّ أن يسهروا ليلتهما الأخيرة أمام البحر وها هي تجني ثمار فكرتها المجنونة.

أفاقت على همسة باسمها أن الطائرة هبطت.. ثم ضحك مشاغبًا هنا لا استطيع حملك نزولًا منها.. وفي طريق العودة رجاها المرور على والدته على أن تنتظره في السيارة وهو لن يتأخر فلا داعي لصعودها وهي مرهقة.. حمدت الله في سرها فحالتها الآن لا تحتمل أي مواجهة مع حماتها العزيزة، ما إن انتهت من فكرتها وجدته عائدًا على وجهه ابتسامة محببة.

اندست جواره على الفراش تتوسد كتفه ويحتضنها بذراعه يشدد من قربها منه كعادتهما في النوم كل ليلة.. شعرت بقبلة خفيفة فوق شعرها ليتبعها همسة باسمها لم ترغب في الخروج من حالة السكينة المحيطة بها فاكتفت بهمهمة تجيبه بها.. ليتنهد تنهيدة طويلة قبل أن يبدأ حديثة بصوت أقرب للهمس:

- أمي طلبت مني الزواج من أجل الذرية.

صَمت ولم يكمل وهي تجمدت حرفيًا مكانها.. ليكمل بهدوء أصابها في مقتل:

- إنها تقول إن هذا حقي وليس هناك خيانة لكِ في الأمر..

تستمع من موضعها لهدير قلبه المرتفع يقابله نبضات قلبها التي تكاد تخبو وتنقطع صامته جامدة لا تتنفس حتى..لا تجد من الحروف كلمات يمكن أن تُشكلها لتُجيبه.. وهو استرسل في شرحه.

- لقد انتقت بالفعل فتاة وأنا لا يهمني شيء إلا رضاكِ وموافقتكِ.. أنتِ حبيبتي ومعشوقتي ولن يأتي مكانكِ أي أحد.. فترة قصيرة أرضيها ونعود كما كنا.

سقطت أهدابها في ألم تُغلق عينيها لا ترغب في رؤية صدره يرتفع وينخفض بأنفاسه المتلاحقة.. مسَّد ذراعها هامساً باسمها.. ولم يجد رد ومع سكونها التام في حضنه ظن أنها نامت.. همس مُحدِثاً نفسه "الحمد الله فلنؤجل المواجهة للغد".

ظلَّت على جمودها حتى انتظمت أنفاسه وتأكدت من نومه انسحبت بهدوء من بين يده.. جلست على فراشهما تنظر له غير مصدقه ما سمعت كاتمة بيدها شهقات ترغب في الانفلات.

خرجت من غرفتهما تنظر إلى كل ركن من أركان بيتهما تبكي روحها وتأبى عيونها أن تسمح لدموعها الحارقة أن تنهمر.. انتهت جولتها بافتراشها أرض غرفة المعيشة أمام مكتبتهما الصغيرة أخرجت صورهما.. تاريخ حبهما.. عشر سنوات من العشق بدأت من الكلية لتشد أواصرها الأيام.. جمعهما مؤتمر لشباب الجامعات لفت نظرها أسلوب عرضه لموضوع مناقشته قابلته بعد العرض واستمرت اللقاءات..

وعندما تقدم لطلب يدها ورفضه والدها لاختلاف المستوى الاجتماعي وضعف المستوى المادي فهو حديث التخرج والده توفى ويتحمل مسئولية أخته ووالدته.. وقفت أمام العائلة بأجمعها ورأت ما يروه نقص مواطن قوة كيف أن بره لأمه وتحمله للمسئولية المبكرة سيكون أساس قوي لزواج ناجح.. وعندما نجحت في إقناعهم.. باعت بعض من ذهبها خفية وقدمت له ثمنها ليحفظ ماء وجهه عند شراء خواتم الزواج.. استطاعت أن تقنع أحد أقاربها ليتوسط له بالعمل في إحدى الشركات وتوظفت هي في شركة أخرى عالمية لِمَ تجيد من لغات ومهارات استخدام حاسب آلي أتقنتها خلال دراستها بجامعتها الخاصة..

حصلت على موافقة والدها بعد خطبة دامت سنة أن يتزوجا في شقة إيجار جديد على أن يتملكا غيرها بعد ذلك عندما يرتفع دخلهما.. اتفقت معه أن يشتريا عفشهما بالقسط ودون أن تُشعره بشيء أكملت للمحلات ثمنها.. وعندما مرَّ عام دون أن يرزقهما الله بالأبناء وافقت بإصرار من أمه على الذهاب للطبيب.

وقعت يدها على ملفات التحاليل والأشعة الخاصة بها كلها تؤكد أنه لا يوجد ما يمنعها من الحمل والإنجاب ثم نظرت في الملفات التي تحمل اسمه تمرر إصبعها على حروفه ليزيد وجع

قلبها وهي تقرأ التقرير أن المريض لا يمكنه الإنجاب على الإطلاق.. تتذكر انهياره ها هنا بين يديها واحتوائها له وإصرارها أن يعلن أن المشكلة منها هي وأنها ستخضع للعلاج.. ورضت وارتضت كلمات أخته المستترة ومصمصة أمه لشفتها متحسرة كلما رأتهما معًا.. ليأتي هو الآن يقول "حقه".. أحقه حقًا ضحكت باستهزاء لا ليس بحق والله شاهد عليه.. "خيانة" لا هي غدر وطعنه في الظهر.. استفاقت على صوت آذان الفجر يُرفع.. لتستغفر ربها وتلملم ما بعثرت من أوراق وصور.. تتوجه لتغتسل وتؤدى الفريضة وتدعو الله أن يُلهمها الصواب.

❀❀❀

أطالت في سجودها حتى شعرت بصفاء عقلها وسكينة حلَّت عليها.. أنين روح ونزيف قلب لا تنكر ولكن هدوء نفس أنزله الله عليها فعزمت أمرها، استيقظ في موعده ليجدها سبقته كعادتها.. اطمئنت نفسه لِمَا ظن ليلة أمس وعليه والمواجهة الآن.. أبدل ملابسه ودخل عليها المطبخ بلا صوت تفيق من شرودها على ذراعيه ترفعانها من الأرض لأعلى.. حاولت جاهدة رسم ابتسامة على شفتيها وهى تسمعه يهمس " أغار من هذا المطبخ الذي يأخذكِ مني دومًا"

لم تعلق وخلصت نفسها من بين يديه مدعية الاهتمام بالفطور صوتها يكاد يُسمع " هيا حتى لا نتأخر الطعام على المائدة ".. يأكل بشهية مفتوحة وهى تارة تنظر له منتظرة حديثه المؤجل وتارة تدَّعي الأكل حتى سمعته يتحدث وهو يلوك الطعام.

- رشا.. لقد كنت أُحدثكِ أمس قبل أن تغفي عن طلب أمي.. صمت لثانيتين يتجرع فيهما قليل من كوب الشاي أمامه ويمنح نفسه فرصة انتقاء الكلمات.. فاليوم وجهه يقابل وجهها والحديث أصعب.

- تنحنح وهو يكمل ترغب أن أتزوج لأنجب ولي العهد.

- ابتسامه مرتعشة تراقصت على وجهها وهي تهمس له: وأنت؟

- أنا لا أرغب في إغضابها في هذا العمر.. إنه بري بها.. مدَّ يده يمسك يدها المتجمدة أمامها على المائدة يحاول أن يبثها طمأنينة زائفة.. أنتِ عمري وحبيبتي ومعشوقتي لا أحد غيركِ يسكن قلبي.. هي ستكون زوجة مؤقتة أرضيها بها فقط ثم..

- قاطعته.. ألا تخاف؟

- ضحكة عالية خرجت من صدره وهو يقول.. ولِمَ أخاف؟ العروس ارتضت شرط أمي بالزواج معها في شقتها

وأمامها سأثير المشاكل شهر أو اثنان.. ثلاث على الأكثر وأقنع أمي أننا غير متفاهمين ويجب علينا الطلاق.. وتعود جنتنا لنا وحدنا.

- بنفس وجهها الخالي من التعبير وعيون تحولت إلى زجاج سألته وهي تناظر عينيه تحاول قراءتهما.. ومتى ستراها؟

- سحب يديه وعاد لاستكمال طعامه.. رأيتها.. وأمي اتفقت على إتمام عقد القران والزفاف نهاية الأسبوع.

- ضحكة استهزاء خرجت منها.. أنت فقط تُعلمني بالأمر.. ليس بالموضوع تفكير جديد وقد رتَّبت كل شيء.

- كاد يختنق بمشروبه وأخذ يسعل حتى أحمر وجهه بعد ملاحظتها التي أصابته في مقتل لينفي محاولًا إصلاح الوضع.. لا لا حبيبتي بالطبع لكِ كل الحق في الرفض والقبول ولا شيء يتم إلا برضاكِ.

- كرَّرت كلمته.. "رضاي" صمتت بعدها تناظره ثم قالت بعزم وثقة: حسنًا وأنا لا يرضيني أن تُغضب والدتك.. وهل لنا بركة إلا هي، ولكني سأشهد عقد القران بل سأوصلك بسيارتي حتى مكان العقد.

- جحظت عيناه في ذهول ليهمس: لماذا؟!

- حتى تتأكد والدتك والعروس من موافقتي ولا تنس أنني لن أستطيع أن أزور بيت حماي لفترة حتى لا تسيء العروس الظن.

- أمسك بيدها يقبلها قائلًا.. حبيبتي أنت دومًا وتاج رأسي

سبقها في النزول وقبل أن تلملم بقايا الفطور الذي لم تمسه.. أمسكت هاتفها النقال لتتصل بصديقتها المقربة، همست بمجرد أن أجابتها " احتاجكِ على الفور" واتفقت أن تلتقيها قبل الذهاب إلى العمل.

حكت سريعًا لها عما حدث وقرارها وما تريده منها.. سألتها بوضوح " لِمَ لا تلجئين لأخيكِ؟ إنه سندكِ "

- لا أنكر أخي سيقف وسيأتي بحقي منه ولكن تدخله الآن لن يحقق لي ما أرغب وهو سيكون عنيفًا.

احتضنتها وهي تهمس في أذنها: أنا معكِ لا تقلقي..

توجَّهت من فورها إلى مكتب مدير شركتها تطلب مقابلته.. لتُعلن له قبول الترقية بالسفر فقد عدَّلت عن رفضها.

- رشا هذا قرارك النهائي لا عدول فيه؟

- نعم سيدي.. كان الرفض بسبب ظروف وقد انتهت الآن.

- حسنـًا أنتِ تعلمين عليكِ البدء أول الأسبوع القادم فهل تستطيعين إنهاء كل شيء هنا في هذا الوقت الوجيز.

- لا تخاف عليَّ سأحجز تذاكر الطيران فجر الجمعة وأنهي متعلقاتي هنا خلال الأيام القادمة وأسلم ملفات العملاء للسيد راشد.

مرَّ الأسبوع سريعـًا ما بين تجهيزها للسفر الذي لم يعرف عنه ياسر أي شيء.. وظنَّ انشغالها كان في الاستعداد لزفافه.. حقـًا هي أولت شراء فستان مناسب للحضور الكثير من الاهتمام ولكنه لم يشغل أكثر من ساعة من نهار وسط باقي التجهيزات التي قامت بها.

يوم الخميس صباحـًا أنهت المتبقي من أعمال وودعت زملائها بالشركة ثم اتجهت إلى مصففة الشعر، عاد من عمله ينادى عليها رشا أين أنتِ لا نريد أن نتأخر، خرجت من غرفتها وهى تقول كلمة واحدة جاهزة.

ألجمته الدهشة.. فمن تقف أمامه كأنها هي العروس وليست الزوجة الأولى التي تذهب لتشهد عقد قران ضرتها.. تتألق في فستان أزرق لامع حدد تفاصيل جسمها مع احتشام في نفس

الوقت رفعت شعرها لأعلي وبعض الزينة التي أبرزت جمال عينيها الطبيعي.. وعندما طال سكوته نادته ياسر هيا هل ستُبدل ملابسك؟

اكتفى بهز رأسه ودخل ليستعد.. وتنتهز هي الفرصة لتتصل بصديقتها "نصف ساعة وسنغادر وقد جمعت كل ما أريده معي في حقيبتين بالغرفة الإضافية "

- حسنًا فهمت وماذا عن..

- قاطعتها ساعة بالتمام وستجديهم يطرقون الباب.

تركته يقود السيارة.. لم تنبس ببنت شفة سوى استفسار واحد عن حقيبة هدايا يحملها بيده ناولها إياها عند دخولهم السيارة.. وإجابته المقتضبة كانت كلمة واحدة " شبكتها " ليُنهي بها كل ما تبقى له من أمل.

انطلقت الزغاريد والمأذون يدعو للعروسين بالبركة ويشارف على الوقوف ليرتفع صوتها.

- من فضلك سيدي لا ترحل أحتاجك.. ثم وجهت نظرها لياسر زوجها طلقني.

الصمت حلَّ على الجميع كأن على الرؤوس الطير..

فأعادت جملتها ياسر طلقني الآن.. طلاق بائن.. وأنا أُبريه من حقي.. ولن أخرج سوى بما اشتريته من مالي.

وقف يهمس باسمها وهو يحاول أن يمد يده إليها ليمسكها.. رشا.

رجعت خطوة للخلف.. أغمض عينيه وهو يكمل لقد وافقتِ؟!

بصوت قوى يخفي صراخ قلبها.. نعم وافقت على زواجك ولكني لم أوافق أن أستمر معك وهذا حقي.. ثم نظرت إلى المأذون أليس كذلك سيدي؟

- نعم بنيتي ولكن...

- قاطعته.. لا وفِّر جهدك في الإصلاح لا يوجد لكن...

سمعت لغط الحاضرين ثم جملة أمه طلقها بُني أنت لا تحتاج لها ثم ابتسامة فرح ارتسمت على وجهها وهي تنظر إلى العروس الجديد لقد أتت وجه السعد لك.

وجَّهت نظرها لتلك المحظوظة لتري ابتسامة نصر تزين فاها تحاول أن تداريها بخجل مصطنع.

لتضحك ساخرة وهي تقول.. نعم ياسر إكتفي بوجه السعد ودع وجه النحس لحالها ثم صرخت فيه طلقني الآن.

أطال النظر إليها قبل أن يهمس.. أنتِ طالق.

زفرت في ارتياح.. ثم نظرت للمأذون تؤكد عليه طلقة بائنة سيدي.

فجر الجمعة كان يفتح باب بيتهما.. لم يستطع النوم.. عاد ظانـًا أنها مازالت بالبيت ليفاجأ أن البيت فارغ لا يوجد شيء سوى مرآة جوار الباب لُصق عليها ورقة كتبت له فيها

"هذا ما دفعت أنت ثمنه في منزلنا.. مبارك الزفاف السعيد"

رشا.

وتركت نكهتها المختلفة للأبد

هزة أرضية

حارة شعبية بسيطة تُغلفها الألفة، تلتصق بيوتها كأنها تحتمي من برد الشتاء، أشرقت الشمس على استحياء تُلقي بأشعتها على النوافذ المشرعة تُخبئ خلايا نحل بشرية تعمل على قدم وساق لإعداد الأطفال للمدارس وانطلاق الرجال إلى أعمالهم، وتبقى الزوجات يُعدن الطعام أو يَقمن بالعمل من المنزل.

وبيتهم لم يختلف كثيرًا عن منطقتهم، الأم تعمل بالخياطة لمن يطلب منها، والأب عامل بسيط في أحد المصانع يحاول جهده أن يوفر حياة كريمة لأسرته خاصة بعد التحاق ابنه الأكبر بالثانوي العام محاولًا تحقيق حلمه ودخول كلية الهندسة أما حبة السكر خاصته، ابنته الصغرى في سنتها الأخيرة بالابتدائية وتسعى لتلاحق خطوات أخيها في التفوق.

اكتفى الاثنان ببعض الرشفات من كوبي الشاي بالحليب المُحلى بالعسل الخاص بهما وانطلقا لمدرستهما التي تقع في منطقة مجاورة لمنطقتهم، تاركين أمهم تستعد لاستقبال بعض زبائنها أما أبيهما فاليوم هو المناوبة المسائية فيستغل الصباح في صيانة المنزل من أعمال تحتاج مهارته.

اليوم يبدو عادي وكل الأمور بخير؛ فجأة مع انتصاف النهار، اهتزت المباني كأنها من الهُلام ليصرخ الصغار في المدرسة مع محاولات مدرسيهم التماسك والحفاظ على الهدوء، هزة أرضية لم تستغرق سوى دقيقة تركتهم مرتجفين بين صارخ وباكٍ، يبحث عن أخته الصغيرة، وصية والديه ليجدها تختبئ تحت مكتب الفصل تحتضن ساقيها نحو صدرها تبكي بلا صوت، تنتظره، وبالفعل ما إن رأته حتى ألقت بنفسها في صدره تبحث عن حماية وآمان افتقدتها.

ساعدها على الوقوف وحمل حقيبتها مع حقيبته وعاد عدوًا إلى منطقة سكنهما يدعو الله طول الطريق أن يُسلم، انقلب الحال، الحارة ليست هي الحارة؛ أكوام من الحجارة؛ أنصاف بيوت؛ تراب مُعلق بالجو، يبحث كالمجنون عن أحد يعرفه، يشدد وثاقه على كف أخته ويقربها منه حتى توقفت أقدامه أمام بيته أو ما كان بيتًا، مجرد كومة عالية من الطوب والتراب وبعض الأقمشة التي علقت بينهم، وجد من يربت على كتفه، إمام المسجد، همس بوقاره المعتاد:

- احتسب بُني.

كلمة واحدة نطقها بتساؤل "وأبي؟"

نظراته إلى الأرض كانت الإجابة ليفهم أنه وأخته أصبحا وحيدين في هذه الدنيا الكبيرة.

أصوات صفارات سيارات الإنقاذ والإسعاف تطغى على المكان، فلا يُسمع النشيج والبكاء، وهما يقفا كالتائهين وسط الجموع، حاول أن يساعد في عملية رفع الحجارة والركام إلا أن أخته الصغيرة أبت أن تفارقه؛ فآثر البقاء جوارها، فُتحت البيوت لاستقبال المنكوبين الأحياء وأصبح الناس في حيرة أيهنئونهم بالنجاة أم يواسوهم على فقدان كل ما يملكوه من متاع الدنيا، ظلَّ الصغيران الشريدان في حالة من الضياع والتوهان ففي وسط زحمة الأحداث نسى الجميع الاطمئنان عليهما بعد حالة الوجوم التي أصابتهما.

انتبه إمام المسجد لهما مع حلول الليل فاقترب منهما طالبًا أن يصعدا معه إلى منزله؛ فالجو أصبح باردًا والصغيرة لن تحتمل، كان الرفض هو الجواب الأول ولكن مع تأكيده أن عملية البحث والتنقيب لن تنتهي الآن صعدا معه، كانت أول وجبة دافئة يتناولها منذ شربا شايهما صباحًا، وقفت لقيمات صغيرة في حلقه وهو يفكر ماذا بعد؟ ماذا سيحدث لهما بعد أن

يجدا جُثماني والديهما؟ نظر لأخته الصغيرة التي أنهت ما كان بين يديها بسرعة وطلب منها الذهاب إلى النوم، وافقته بصعوبة بعد أن وعدها أن يظل بجانبها؛ وأخلف وعده بمجرد أن أستلمها سلطان النوم؛ تسلَّل من جوارها وعاد مرابطًا أمام الركام يتابع عمليات الرفع والبحث بنفسه متجاهلًا توسلات الجميع بعدم البقاء حتى وجدوا أول جثة كانت لأبيه، عرفه من ملابسه المتسخة.

أغمض عينيه ودموعه تنهمر بلا حساب؛ فقد كان يراوده بعض الأمل أن يكونا أحياء، ليجدوا والدته بعد ذلك بساعة لتنكسر روحه ويتحطم قلبه لن يجد بعد اليوم من يمسح له رأسه ويُقبِّل جبينه ويحتضنه في حنان، وضاعت لذة طعام لم تُعِده أمه ثم تذكَّر أخته الصغيرة التي لم تشبع بحب والديها، أشبع هو؟ عليه أن يُشبعها حبًا وحنانًا لن يدعها تحتاج لمخلوق مادام في صدره نفس، فهما لا خال أو عم لهما فمن سيقبل بهما؟

كأن سؤاله كان مسموعًا ليجد الإجابة آتية ممن يقف جواره "إمام المسجد"

- اصعد الآن بُني وغدًا سنبدأ البحث عن أقاربكم.

في صمت تحرَّك، كان مُجبر على السمع والطاعة فجسده هدَّه التعب وعقله أنهكه التفكير، ليندس في الفراش جوار أخته

داعيـاً الله أن يجد من يرق قلبه لحالهما من الأقارب الذين لا يعرف عنهم شيء.

صباح مختلف تمام الاختلاف عن سابقه؛ ضيوف؛ أغراب؛ يعتريهم الخجل، يكتفوا بالقليل فهم أعلم بحال أهل حيِّهم، همس في أذن أخته أن تكون مطيعة لزوجة الشيخ، وعاد إلى موقع الهدم حيث تجمَّع أمامه ما استطاعوا استخراجه من ملابس والمقتنيات البسيطة لسكانه أخذ يبحث بينها وهو يمسك في يده حقيبة بلاستيكية يجمع قطعة ملابس من هنا وكتاب من هناك، ظل يبحث عما يصلح حتى وقع في يديه أهم شيء الأوراق الرسمية لأسرته كان أبيه حريص أن يضعها في ملف من البلاستيك حتى لا تبلى.

ومع انتصاف النهار أنهى مهمته وقبل عودته إلى منزل الشيخ لفت نظره وسط الغبار رأس عروس صغيرة إنها لعبة أخته بشعرها الأسود المجعد ميَّزها رغم كل شيء، جرى نحوها ينتشلها وينظفها بيده قدر المستطاع وعاد يرسم ابتسامة يحاول بها التخفيف عن الصغيرة، استقبله الشيخ قبل صعوده يخبره إن الإجراءات الرسمية لاستخراج شهادات الوفاة ستنتهي في الغد

لإقامة جنازة جماعية لأهل الحي، هزَّ رأسه دون تعليق ليكمل الشيخ كلامه إنه حاول الوصول لأحد أقارب والده من قريتهم وإنهم سيأتون في أقرب وقت، توالت الأحداث في سرعة؛ كأنه متفرج على الرغم من مشاركته كل ما حدث؛ استلام جثامين الضحايا من المشرحة؛ الوقوف على الغسل؛ الصلاة عليهم والدعاء لهم بالرحمة؛ أودع والديه بنفسه مثواهم الأخير رغم كل الاعتراض ممن رافقه إلى المقابر فهو بعد صغير إلا أن إصراره على القيام بهذا بنفسه ألجمهم، ومرَّ أسبوع تلاه آخر ولم يظهر هذا القريب الذي وعد بالمجيء، وهما ضيفان ومهما كان الأمر فعليهما الرحيل.

راحت السكرة وجاءت الفكرة، فاستأذن أن يتحدث مع الشيخ طالبـاً منه سعة الصدر والتفهم، بدأ كلامه أن هؤلاء الأقارب لن يأتوا فلن يرغبوا في تحمُّل عبء تربية ومصاريف زائدة عليهم، وهو يستطيع تحمُّل المسئولية كما رباه والداه فلا داعي للقلق عليهما ثم ابتلع ريقه قبل أن يُكمِل:

" لقد وجدت مكانـاً مناسبـاً لنا، حجرة صغيرة فوق سطح عمارة قريبة وإيجارها مناسب وأنا سأعمل حتى تقف أختي على قدميها وأزوجها بنفسي".

نظرة فخر ملأت عين الشيخ وغصة دمع منعه من النزول ظهرت على نبرات صوته وهو يحاول بغير قوة إثناءه عن رغبته، ولكنه يعلم في داخله أن حال الجميع متشابه، فطمأنه أن مدير المصنع منحه يوم العزاء مبلغ مكافأة عن مدة عمل والده ووعده بصرف معاش وإن كان قليلًا إلا إنه سيساعدهم، وبالفعل تم ما رغب فيه أجر الغرفة واشترى بما معه من مال مرتبة وغطاء ووسادتين ولم ينس أن يحضر بعض الأدوات الضرورية للطعام.

ووجد عملًا مناسبًا "صبى قهوة" فالعمل بديلًا عن والده في المصنع لن يصلح حتى يبلغ السن القانونية، فرضا بهذا العمل البسيط واضعًا كل تركيزه على الصغيرة وتحقيقها أحلام والديهما أما أحلامه هو فقد أختزلها في توفير لقمة عيش نظيفة لها.

لم يكن العمل سهلًا، فمعاملة الزبائن بمختلف طباعهم وأنماطهم مع خبرته القليلة كان صعبًا والوقوف طوال الوقت كان مشقة؛ ولكنه تحمَّل كل هذا في سبيل بضعة جنيهات يضيفها على معاش والده البسيط من المصنع، سارت أمورهما بخير حتى أتت ليلة اشتد فيها المطر فخرق السقف الخشبي لحجرتهما مغرقًا كل مَن فيها؛ هتف في الصغيرة أن تنزل على السلم بسرعة

وجمع المرتبة والغطاء في عجلة وجرى خلفها، استيقظ سكان العقار ليجدهما نائمين تحت السلم، فرقوا لحالهم وعرضوا عليهم البقاء في نفس المكان وتكفَّلوا باستكمال ما يشبه الحجرة ليسترهما عن أعين الداخل والخارج.

جُحر، هكذا أصبح بيتهما، رضيا به فما باليد حيلة وإصلاح السقف في الغرفة العلوية سيُكلف الكثير مما لا يملكان؛ المهم أن لديهما مكان يبيتا فيه وبابًا يغلق عليهما، ومرَّ الشتاء بسلام ونجحت الصغيرة بتفوق كما اعتادت، أما هو فقد استطاع أن يحفظ عادات زبائنه وطباعهم وكسب ثقة "المعلم" صاحب القهوة فبدأ يرسله في مهام انتقاء وشراء المؤن، ويأتمنه على المكان في حالة عدم وجوده.

كانت أكبر مشكلاته هي إعداد الطعام، فهو لا يعرف كيف، وأخته مازالت صغيرة على القيام بهذا الدور، وهو لا يقبل أن يعيش على ما يجود به الجيران وأهل المنطقة، اكتفى في البداية بالأطعمة الجاهزة من فول وفلافل وكُشري ولكن كل هذا غير كافي لنمو الصغيرة، فبدأ يسأل الجيران ليتعلم بعض الأمور البسيطة، ونجاح أول طبق ساخن أعده في المنزل كان فرحًا حقيقيًا على الرغم أنه كان مجرد "مكرونة" وتوالت النجاحات،

وفي الأوان ذاته أوكل الصغيرة لزوجة الشيخ لتُعلمها شئون المنزل وأمور النساء مما تفتقده بغياب أمها وفي نفس الوقت يأمن عليها في فترة عمله التي يغيب فيها طويلًا عن حجرتهم.

دخل عليه يومًا ما أحد المثقفين وتجاذب معه أطراف الحديث، أعجب بكفاحه ورسالته فأصبح يُحضر له الكتب المختلفة ويناقشه فيها ويقول له دائمًا:

"إن كان نصيبك ترك العلم فلا تترك الثقافة، وتستطيع أن تعود للدراسة في أي وقت وهذا سيساعدك".

نهل من المعرفة قدر ما استطاع ناقش وفهم وتعلم، أصلح سقف الغرفة بنفسه ما إن توافرت لديه بعض الأموال، استمرت الصغيرة في دراستها واستطاعت الالتحاق بالتعليم الثانوي واختارت القسم الفني بدلًا من العام على الرغم من أن مجموعها يؤهلها له حيث رأت أن هذا أسرع طريق للعمل ومساندة أخيها.

وجد الفرصة مواتيه؛ فتقدم للدراسة من المنزل فشارك أخته سنواتها الدراسية واختلف التخصص بينهما، فهي اختارت أن تسير على درب أمها ففضلت النسيج وهو سار على درب أبيه واختار الميكانيكا، واصل الليل بالنهار فهو لا يمكنه أن ينقطع عن العمل ولا يستطيع أن يذاكر بالقهوة، ولولا تفهم "المعلم"

الـذي أحـضر صـبي صـغير يـساعده مـا اسـتطاع أن يـدرس كلمـة واكتفى بالراحة ساعتين فقط، لتأتي النتيجـة مفاجـأة للجميـع، فقـد نجحا بتفوق أهَّلهما للدخول إلى الجامعة، لقد تحقق الحُلم ولـم يضيعا مجهود والديهما هباءً، وكانت الهزة الأرضية التي زلزلـت حياتهما سببـًا في صقلهما وصلب عودهما لمواجهة الحياة.

وكانت حياتهم بنكهة مختلفة.

بوح

أكتب الآن بناءً على نَصِيحة طبيبي النفسي أن أتحدث مع الورق بدلًا من الحديث معه، لم يرد أن يقول إنه فقد الأمل مني في الحديث معه مرَّت عدة جلسات دون أن أفتح فمي ببنت شفة، لا أفهم كيف أتحدث عن مكنون قلبي وأكشف جروح روحي وتتعرى حياتي أمام شخص غريب .

الحقيقة لم يتوانى أخي عن تلبية أوامر هذا الطبيب فقد أحضر لي دفتر زاهي الألوان غلافه يحمل صورة زهور جميلة والشمس مشرقة عليها، يحاول أن يمنحني الأمل بها، ومجموعة من الأقلام بمختلف الألوان لم أختر منها سوى الأسود، قبع الدفتر بصحبة الأقلام في درج بجوار سريري أفتحه كل يوم أتطلع عليهم بلا ملل لساعات لأعود وأغلقه مرة أخرى.

حتى واتتني الشجاعة وأخرجته والقلم ليبقى جواري على السرير أنظر له وأشعر أنه ينظر إليَّ ويُحدِّثني ويبث فيَّ كلمات مشجعة أن أفتحه، كدت أفعلها يومًا واقتربت يدي إلى غلافه حد الملامسة لأبعدها في ذات اللحظة كمن مسَّته الكهرباء.

تجرأت بعد تلك الواقعة بأسبوع تقريبًا، تصفَّحت أوراقه بين

دفتيه، أوراق زهرية مُزينة الحواف بزهور صغيرة لم تكن دافع كافي لأبدأ في الكتابة، استمريت على هذا المنوال أسبوع أخر، أُخرج الدفتر بصحبة الأقلام لتقبع جواري ثم أقلِّب صفحاته الفارغة ليعود الجميع في ذات المكان خالي الوفاض.

وفِي يوم بدون ترتيب أو قصد مني أمسكت بالقلم الأسود دون غيره أخط خطوط عشوائية لا هي رسومات ولا هي كتابة مجرد شخبطات، دوائر من فوقها دوائر حتى تقطَّعت الورقة وطُبع اللون الأسود على الورقة تحتها، نبَّهني صوت التمزق فتجمَّد القلم بين يدي ونظري على ما فعلت.

حقًّا كأني لم أكن أنا من فعل هذا بصفحة الدفتر، أغمضت عيني أمنع دموعي الخائنة وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن يسقط القلم من بين أناملي لأخبئ وجهي وأبكي بلا صوت حتى شعرت بالراحة، أغلقت دفتري وقلمي وأعدتهما لمكانهما الأثير ودسست نفسي تحت أغطيتي أصطنع النوم وأهرب من الجميع.

طرقات رقيقة على باب الغرفة ميَّزتها أذناي، لم أكترث فأنا أعرف صاحبتها، إنها ابنة أختي ذات الخمس سنوات، حلوتي الصغيرة قطعة من قلبي، ولكن القلب أغلق أبوابه ونوافذه فلم يعد يسع أحد، وهي ببراءة طفولتها لم تترك يومًا لم تطرق فيه

بابي تناجيني من خلفه أن أسمح لها بالدخول، وأنا كالصنم لا أسمع ولا أتحرك وأتركها تنادي وتتوسل حتى تبكي ويحملونها بعيدًا عن بابي الموصد في وجهها.

واليوم لم يتبع الطرقات كلماتها الرقيقة ولكن سمعت الباب يُفتح وخطواتها الصغيرة تجري نحو سريري، لا أكذبكم القول لقد انتشى قلبي وكادت جفوني أن تخونني هي الأخرى وتتخلى عن مُداراتها لعيناي، ولكني تماسكت وأنا أشعر بها تتسلق الفراش جواري لتجلس وهي تلهث حماسًا وتعبًا، شعرت بوجهها يقترب من وجهي، ضحكت داخلي دون نفس أو حركة إنها تتأكد من نومي، مدَّت أناملها الصغيرة تَمسح ما بقى من دموع على وجنتي ثم اقتربت تُقبِّلني ورفعت نفسها تُقبِّل عيناي، ثم عادت لجلستها تضع يدها على ذراعي تربت عليه بحنان تنهدت كمُثقَّلة بالهم قبل أن تقول بكلمات صدمتني..

"يكفي حزن ويكفي بكاء، الْيَوْمَ شددت كرسي ووضعته أمام بابك لا أحد يوافق أن يتركني أدخل لكِ لقد تسلَّلت، وضحكت ضحكتها الشقية لتُكمل، اشتقت لكِ وللعبنا معًا أخبريني فقط من تشاجر معكِ وأنا سآخذ أبي ونذهب ونضربه ولكن يكفي فلا يوجد في الدنيا من يستحق كل هذه اللآلئ".

ثم سَمعت أمها تناديها فطبعت قبلة سريعة قبل أن تخرج عدوًا من الغرفة لأنهار أنا بعدها، صغيرتي تشعر بي وتريدني أن أعود لها، شقَّت ابتسامتي الدموع التي ملأت وجهي، لأمد يدي أسحب دفتري وقلمي أخط بهدوء حذر أول كلماتي " لقد رأيت نورًا آخر النفق" تنبَّهت أن ما خطَّته كان باللون الأخضر، زادت ابتسامتي فصغيرتي كالجنية لمستني بعصاةٍ سحرية ففتحت أستار روحي وغيَّرت حتى لون قلمي.

❀❀❀

كأيامي الماضية لا فرق عندي بين الصباح والمساء سوى إصرار أمي كل يوم على إبعاد الستائر وفتح النافذة في غرفتي، وكرد فعل حفظته مني أستدير وأعطي النافذة ظهري كرفض مني أن يوم آخر قد مرَّ من حياتي الرتيبة، واليوم دخلت أمي كعادتها تُزيل الستائر وتدفع الشباك بقوة ليصدر ارتطام الخشب بالحائط صوتًا قويًا ويعلن صارخًا عن نهار جديد، توقعت أنها ستجدني رافضة معترضة أوجه وجهي إلى الحائط ولكني اليوم خالفت التوقع، صحيح لم أفتح عيني، لم أبتسم كما كنت أفعل وأنا صغيرة ولكني أبقيت وجهي يواجه الضوء والنهار الجديد.

اقتربت مني بحذر تمسح على رأسي وتقبلها بحنو وهي

تهمس جوار أذني "هيا حبيبتي أنتِ أقوى من ذلك" ولكني لم أصدر أي رد فعل، فتنهدت وعادت أدراجها تعد لي إفطارًا تُطعمني إياه بيدها كطفلة صغيرة.

ما إن سمعتُ صوت إغلاق الباب، جلستُ أستند على ظهر السرير أضم ساقيَّ إلى صدري، أتنفس بقوة، ثم ألتفتُ أنظر من النافذة لحظات قليلة لأمد يدي وأفتح الدرج المُخبأ فيه دفتري، أتأمل الأقلام وألوانها "متى أصبح من الأقلام الجاف كل هذه الألوان؟!" حدثت نفسي وأنا ألاحظ للمرة الأولى درجات الألوان المختلفة التي اشتراها لي أخي.

كمن يعزف على البيانو أخذت أناملي تتنقَّل بينها حتى استقرت على اللون البني، وفي صفحة جديدة أخذت أرسم وأظلل، لم استخدم لونًا آخر غيره تارة أجعل اللون خفيفًا وأخرى أحوله إلى غامق أقرب للسواد، انتهيت من الرسمه وأبعدتها عني لأراها بوضوح، شمس تحاول أن تخرج باستحياء من خلف الغيوم، وشجرة جفَّت أوراقها تقبع تحتها فتاة صغيرة تحتضن ساقيها وتدفن وجهها فيها، سمعت حركة بجوار الغرفة فأسرعت أخفي الدفتر مرة أخرى.

" تتهمني أختي بالدلال، ويشفق أخي على حالي، أمي

يتمزق قلبها كل يوم من مرآي، وأنا محبوسة داخل نفسي أحاول بجدية أن اكسر أسوار سجني لا أنكر أنني استسلمت في البداية ولكن منذ هذا اليوم الذي اقتحمتني فيه الصغيرة أنا أسعي بجد لتغيير حالي، وها هو دفتري يمتلأ يومًا بعد يوم بكل ما يجول به خاطري، كلمات، رسومات، عبارات وعبرات أبوح بمكنون روحي على الورق، كل شيء إلا سبب حالي."

"أغرقني أبي بحنانه وعندما كانت تلومه أمي يقول لها "دعيني أدللها فلن يدلل البنت أحد مثل أبيها" وصدق ظنه فمنذ أن تركني والمراهقة تطرق بابي لم أجد في حنانه أو دلاله على الرغم من حب الجميع لي وإحاطتي بالرعاية والحماية فأنا صغيرتهم أمانة أبي في أعناقهم كما يردِّد أخي دائمًا."

"حصَّنت قلبي ورقيته أن يبعد الله عنه حُب يكسره، رأيت من النظرات الكثير، وسمعت من الهمسات ما يذيب الثلوج، ولكني أغمضت عيني وأهملت المغازلات وظننت أني نجوت بقلبي إلي بر الآمان، حتى أتيت أنت، كالفراشة تنجذب إلى النار جذبتني إليك فاحترقت أجنحتي، أغرقتني بمعسول كلام أجده الآن كالعلقم في حلقي وبنيت لي قصورًا من الرمال تهدَّمت أعمدتها وسقطت فوق رأسي."

"التقينا صدفة أم كان اللقاء مدبرًا، حقًا لا أعرف، جمعتنا زيارة بالمستشفى لتهنئة صديقتي بمولودها الأول وكنت أنت تُهنِّئ زوجها، يومها لم أدقق في شكلك ولكن صوتك الرخيم جذب أذني ولم تواتيني الجرأة أن أرفع رأسي لأري صاحبه، ورحلت أنت، وبقت كلماتك البسيطة التي سجَّلها عقلي تدور داخلي، حاولت جاهدة أن أنساه وباءت محاولاتي بالفشل."

اليوم عزمت على التغيير، نهضت من رقدتي الدائمة وفتحت نافذتي بنفسي، صفَّفت شعري كما يحب والدي، ذيل حصان مرتفع ليتهادى مع كل حركة مني، جلست على الكرسي الضخم أمام النافذة أتأمل السماء وفروع الأشجار والعصافير تتراقص عليها، ضبطت نفسي أبتسم للعبها لأول مرة منذ ما حدث.

سمعت حركة أمي المعتادة أمام باب غرفتي فلم أغير وضعي، وفُتح الباب ولم أسمع شيئًا بعدها، لا صوت أمي ولا صوت خطواتها نحوي، استدرت لأجدها تجمدت ممسكة بمقبض الباب والدموع تغرق وجهها، همست "أمي" لتهرول نحوي تحتضني وتُقبِّل وجهي وتمسح على رأسي تدفني داخل صدرها ثم تُعيد الكرة من البداية.

"لا أعرف سر راحتي منذ بدأت أسطر كلماتي وأفشي أسراري

لدفتري الصغير، شيء ما يدفع للبوح بما لا يعرفه غيري، لأول مرة أمس أكتب "عنك" سبب شقاء روحي، صدفتنا الأولى لم تتكرر بل كان لقاء مُدبَّر، صديقتي تلك دعتني وأمي لحفل "سبوع" مولودها، لبَّينا الدعوة فهي صديقة الطفولة والصبا.

يومها رأيتك تجلس وسط كبار العائلة ظننت أن السبب مكانتك التي همست بها في أذني صاحبة الدعوة، هيبتك خطفت أنظاري، وأرهفت السمع لألتقط أي من كلماتك إلى أن ضبطتني أتأملك، وقتها أطرقت الرأس خجلًا واختبأت وسط الحضور، عدنا لمنزلنا لتأتي مكالمة صديقتي تُبشِّرني برغبتك في الزواج مني بالطبع، ما أعقب كلماتها عنك من جمل لم أسمعها فقد توقف السمع عند "رغبتك"، لامست السحاب من فرحتي، وكعادتي حكيت لأمي التي اتخذت من الصمت جواب، لم أفهم وقتها أهو اعتراض عليك أم عدم رغبة منها في كسر فرحتي."

أصرَّت أمي على أن أخرج لتناول الإفطار معهم، فالكل مجتمع، ملأت الدموع عيني وأنا أسمع نبرات صوتها تزغرد فرحًا بجلوسي خارج سريري، اعتقدت عودتي كاملة، بدأت أهز رأسي رفضًا للخروج وهي تُحايلني تُقبِّل جبيني مرة وتحضني أخرى، تؤكد أن لا أحد سيضايقني وأني سأعود وقتما أشاء، رغبتي في أن

أسعدها طغت على رغبتي في الهروب، وقفت أتكأ على ذراعيَّ الكرسي لتأخذني تحت ذراعها كأنها تحميني من الدنيا وشرورها " آه يا أمي لقد أنجرح قلبي وانتهي الأمر"، فتحت الباب لتخرج أولاً وتجذبني للخارج ليعم الصمت المكان لا أحد من أخوتي يصدق أنني أقف أمامهم لأشاركهم جلستهم، قطع الهدوء صرخات الصغيرة الفرحة وركضها واحتضانها إياي سقطت كل حصوني أمام براءة مشاعرها وانحنيت أبادلها الحضن بأحضان والقبلة بقبلات والضحكة بدموع اشتياق، نعم لقد اشتقت لنفسي.

"بهرتني بكلامك الرزين ووعودك عن مستقبل يجمعنا، وقفت أمام الجميع فرفضهم لك كان بالإجماع فكيف لي أن أقبل بأرمل يكبرني بما يقرب من العشرين عامًا وأنا يتقدم لي خطاب أصغر سنًا، لا خلاف أنك كرجل له مكانه اجتماعية ووظيفة مرموقة ولكن لعروس أخرى، كانت حرب شرسة بيني وبينهم حتى رضخوا لرأيي فأنا أحببتك وقبَلتك بكل عيوبك التي يروها، وأتى اليوم الموعود وحضرت وأسرتك وقرأنا الفاتحة وأصررت على زواج سريع، ووعود بتحقيق كل ما أرغب من تعديلات في شقتك، ماذا بعد هذا؟ لا شيء تتمناه عروس محبة أكثر، رفعتني يومها إلى سابع سماء حلقت فيها ليلتها مع رسائلك التي تتابعت

على هاتفي تسألني متى يمر الوقت وأصبح في منزلك وأنام إلى جوارك.

وكمراهق يتغزل في حبيبته سهرنا حتى أشرقت شمس الصباح لرغبتك " أن ترانا الشمس وأنتِ على اسمي" ضحكت وأنا أوضح " أنه مجرد وعد فقط لم أصبح زوجتك بعد" نهرتني مؤكدًا أنني كذلك منذ أول يوم وقعت فيه عينك عليَّ، وانتشيت فقد سكنت قلبك وتربعت فيه."

"بناء عادة يومية يستغرق ٢١ يومًا وكذلك تركها يحتاج نفس المدة، خطوات صغيرة تجاهها والتركيز عليها وحدها والاستمتاع بها كل مرة، هكذا انتهت دراسات التنمية البشرية التي أولعت بها وواظبت على القراءة فيها، فكيف يطالبوني الآن أن أبرأ من عاداتي التي بنيتها معك يومًا بعد يوم حتى وصلوا تسعين يومًا، تخليت فيها عن نفسي ولبست رداءً خِيط لي، وسرت على درب رُسم لي، أراك كما لم أر احد من قبل، فتنتني بسحرك فسرت ورائك كالمغيبة."

وقفت أمام دولابي أنظر لملابسي، أتفحصها وأقلبها بين يدي، كرهتها جميعًا، فكل هذا عانقته عيناه ولمحت فيهما نظرات معجبة، وبلا أي مقدمات خلعتها من شماعتها واحد وراء

الآخر أمزقها وألقي بها على الأرض، أفقت على يد أمي من جهة وشقيقتي من الناحية الأخرى كل منهما تحاول جذبي ناحيتها حتى استقريت في حضن أمي أبكي وأصرخ أن لا رغبة لي في رؤيتها مرة أخرى، جرَّتني أمي لسريري وجلست شقيقتي تجمع ما تمزق في حقيبة وما أنقذاه من يدي في حقيبة أخرى قررت هي إرسالها لمن يحتاجها.

طرقات منغمة، لا أعرف ما إصراره على دقها كل مرة كأنه يحتفل بدخوله غرفتي، ليُفتح الباب ويدخل بقامته المديدة وابتسامته الخلَّابة التي تمسح كل سوء داخلي وتجبرني أن أقابله بمثلها، ولكن منذ انكساري وتاهت بسمتي وسط اجترار الأحزان. وقف أمام سريري يضع يديه خلف ظهره، وابتسامته مصرة أن تستفز داخلي وتدفعني إلى ردها، حاولت ألا أحزنه ولكني فشلت، مد يده يمسح دموع وهمية على وجنتي في الغالب مجرد بقايا انهياري الصباحي ليفاجئني بكيس هدايا يخرج من خلف ظهره ويشير لي أن افتحه، بتردد أخذته، لأجد داخله فستانًا جديدًا نظرت إليه من بين دموعي ليحتضن وجهي بين يديه" لا أريد أن أرى هذه الدموع، قسيه بسرعة انتظرك في الخارج" قالها واستدار خارجًا.

"عروس سعيدة كنت، خطوت إلى بيت الزوجية أنظر في جنباته، بعد قليل تصل غرفة نومي الجديدة التي اخترتها وأحمل بين يدي بعض من جهازي لأبدأ ترتيب حاجتي فلم يعد هناك كثير من الوقت للزفاف، التفت أنظر إليك، أنتظر منك قليل من حبك الذي تغرقني به كل ليلة قبل أن ننشغل مع الجميع، وجهك لا يُفسَر كُسيَّ بالسواد كمن مات له عزيز، دفعني قلقي وخوفي عليك أن أتقدم وامسك بيدك أسأل عن المشكلة لتنهار أمامي جالسًا على الأريكة خلفك تبكي على من تركتك وماتت، تعترف أنك اخترتني لأن ملامحي تقترب منها، علَّمتني عاداتها بثت أشواقك وحبك لها من خلالي، واليوم لا تستطيع أن تتخلى عما اختارته هي لتزين به بيتكما، وكنت رحيم معي فتركت لي الاختيار بين أن أعيش بردائها أو نفترق، أنهيت كلامك ونظرك معلق بشفتي وصمتُ أنا، اعتراف منك ظننا أن لا شاهد عليه سوى الله لنجد أهلي كلهم كُلٌ يمسك صندوقًا ويقفوا في ذهول مماثل بمدخل الشقة.

كان أخي أول من أفاق وضع صندوقه على الأرض وتحرَّك تجاهي ليحمل عني صندوقي ويسحبني لأغادر بيتك وحياتك كلها لأسقط فاقدة الوعي ما أن خطت قدمي عتبته"

فستان منقوش بالورود الملونة كان بداية حياة جديدة تحمل أمل بين طيَّاتها، خرجت يومها من غرفتي لأجدهم جميعاً كمن يقف في طابور عرض ينتظروني، ضحكت غصباً عني فالترقب في أعينهم أثارني، جذبني أخي لحضنه وهو يمازحني على شعري المشعث وغير المناسب لتلك الهيئة المهندمة، وكان القرار الذي أطعته وأنا مغيبة في حب حقيقي غير مزيف خروج الجميع للغداء والتسوق.

"أسبوعان قضيتهما في المستشفي جراء انهيار عصبي، من يقول تعلقي به بسبب افتقادي للأب، ومن يقول إنه أول حب أصعب جرح، في النهاية لم ينجح أحد في إخراجي من شرنقتي أو أن انبث بكلمة، اليوم أكاد أن أجزم أنني قد برأت تماماً استعدت حياتي التي سلبتها مني تحررت من قيودك التي كبلتني، التقطت أذني دون قصد مني بعض أخبارك ولم أهتم كما كنت أفعل، وكما كان لقائنا الأول صدفة فكان دليل شفائي صدفة، اصطدمت بعربة التسوق الخاصة بك في بالسوق التجاري تعلقت بذراعك مَن فهمت أنها زوجتك الجديدة، نظرة انتصار رمقتني بها، قابلها نظرة شفقة مني. كان الطريق طويلاً ولكني نجحت في أن أمزق صفحتك من حياتي، اتخذت صديق جديد، دفتر وأقلام، وقبل أن ينتهي احدهم أسارع بشراء غيره، أما منقذي الأول فهو مخبأ في صندوق أعلي دولابي".

وكان مُنقذ ذا نكهة مختلفة

أنيس الروح

عام الأحزان، إنه بالفعل هكذا، بدأته بوفاة زوجها ليُلحقه بقليل إجهاض حمل جاهدت كثيرًا ليستمر مدة أطول هذه المرة، نفَّذت فيها تعليمات الطبيب.. فوَّضت أمرها إلى الله فليس من قسمتها الذرية ومن يدري ما يخبئه لها القدر من خير، وها هي سلسلة أحزانها تستمر، لتتوفى شقيقتها وزوجها وابنهما الصغير في حادث سيارة ولم ينج منها سوى تلك الصغيرة التي تجالسها في المستشفى، تدعو الله ليلًا ونهارًا أن يردها سالمة.. تتعهد أن تقوم بتربيتها وأن تعوضها حنان الأم قدر استطاعتها.

حاول شقيقها إثنائها عن هذا فهي في الثلاثينات ويمكن أن تتزوج مرة أخرى وقد تكون بنت في الثالثة من عمرها عائق ضد هذا، لتقف أمامه مُعلنة بتحد وتصميم إنها لا رغبة لها في زواج يحرمها من أمومة وهبها الله لها ثم لمن تتركها؛ هي خالتها والأقرب لها من زوجة عمها الذي يقيم خارج البلاد، وخرجت الصغيرة من المستشفي لتجد عالمها مقلوب رأسًا على عقب تمرَّدت.. صرخت.. انزوت على نفسها.. تسلَّحت بسلاح الصمت.. غضبت على الطعام ما تحب وما لا تحب، وفي كل مرة

تجد دفء أحضان خالتها يضمها، مهما حاولت الانفلات والهروب من بين ذراعيها تُشدِّد عليها قبضتها وهي تهمس لها بكلمات المحبة، تُملِّس على شعرها وتؤكد لها إنها لن تُحزنها أبدًا.

نجحت بعد فترة في محاولتها، صحيح لم تستوعب الصغيرة معنى حرمانها من أسرتها الصغيرة ولكنها تقبَّلت الحياة في بيت خالتها خاصةً عندما وفَّرت لها بعض المغريات التي لا يصمد أمامها أي طفل، فأحضرت لها أرجوحة وقفصًا للعصافير وعندما طالبت بقطة لم تبخل عليها بها حتى خوفها منها تغلَّبت عليه وتعلَّمت الاعتناء بها مع الصغيرة وكانت هذه القطة الصغيرة سببًا في إذابة المُتبقي من جليد بينهما.

❀❀❀

ومع مرور الأيام كبرت الصغيرة وفهمت وقدَّرت مقدار التضحية التي قدَّمتها خالتها، ومن وقتها وهي تمنحها حبًا غير مشروطًا..اتخذتها صديقة قبل أن تكون أمًا فلا أسرار بينهما، تحكي لها عن أخطائها قبل نجاحاتها، واليوم لا تعرف هل تحكي لها أم تُخبِّئ سرها هذا داخل قلبها، لا تعرف أن عيونها تفضحها وأن الأم تقرأ ابنتها فماذا لو كانا بمثل قربهما؟ اقتربت منها ملَّست على رأسها لتُنبَّهها لوجودها ثم ضمتها لصدرها وهمست بحب

" قلب صغيرتي عرف الحب" عُقد لسانها من المفاجأة لم تكن تعلم أن " أمها" – كما أصبحت تناديها – تقرأها بهذه السهولة.. ابتسمت وهي تُقبِّل جبينها وأخذت تشرح لها (الصب تفضحه عيناه).. احكي لي كل شيء لا أريد أن تنسي أي نقطة.. الحب جميل ولكن أخاف عليك من المخادعين وأنتِ صغيرتي مازلتِ دون خبرات في الحياة).

بدأت تحكي دون توقف، هو زميل لها بالجامعة يسبقها بعام واحد والدته توفَّت قبل دخوله الجامعة مباشرةً وليس له أخوة مثلها تمامًا، يعيش مع والده الذي قارب سن المعاش، استمعت بصمت ثم طلبت أن تدعوه للقائها بالنادي يوم الجمعة بحيث يتناولوا الغداء هناك، قبَّلتها وقفزت في سعادة تتصل به تخبره بالدعوة فقد شعرت أنَّها اقتربت من تحقيق حلمها، نجح في كسب موافقة أمها والتي وضَّحت أنها لن تسمح لأي أحد أن يتسبب بخدش صغير لابنتها، وقدَّر هو خوفها عليها فهي أمانة أختها ووحيدتها ولاحظ في جلسته هذا الرابط الخفي بينهما كأنهما يفهما بعضهما البعض من نظرة واحدة..

يجدهما في لحظة كصديقتين تمزحان معًا ولحظة أخرى تلتبس فيها روح الأم كتلك اللحظة التي أرسلت تحذيرها له

وثالثه كأنهما عميلتان سريتان لهما لغة مشفرة خاصة بهما مجرد كلمة لتجيب الثانية بكلمة أخرى.. ضحك داخل نفسه وهو يمنِّها بحياة مملوءة بالمغامرات معهما فشاء أم آبى فأمها ستكون جزء أساسي من مستقبلهما معاً.

مرَّ العام سريعاً واليوم هو المحدد للتقدم لطلب يد ابنتها بشكل رسمي، أعدَّت كل شيء بنفسها الحلويات، العصائر، عطَّرت المنزل وأكدت على أخيها الحضور، ولم يفتها أن تتصل بعمها تخبره بخطبة ابنة أخيه، أصرَّت أن تشتري الصغيرة فستان جديد دون حساب لتكلفة، كل شيء جاهز لاستقبال الضيوف، وفي الموعد المحدد حضر العريس مع والده وتمَّ التعارف وقراءة الفاتحة، وجلست ممسكة بيد ابنتها تقبلها بين الفنية والأخرى تحبس دموع عينيها فلم تلحظ هذا الذي جلس يراقبها باهتمام على الرغم من انتباهه التام لِمَا يدور حوله من اتفاقات مادية وما غيرها من أمور الخطبة.

تعدَّدت اللقاءات العائلية لشراء مستلزمات الخطبة وكلها يجتمع فيها العروسين مع والديهما، كانت تجيبه على استحياء فالوضع فُرض عليها النقاش المباشر معه.. انجذب لها ليس

لشكلها فهي عادية الملامح محتشمة الملابس ولكن من الواضح اعتنائها بنفسها واهتمامها برشاقتها وصحتها.. شخصيتها جذابة، والحديث معها حلو.. أصبح يكره اللحظات التي تجبرهم على الرحيل لانتهاء جولتهم الشرائية.. هو رجل محنك اعتركته السنين يستطيع أن يعرف ادعاء من أمامه وهي كانت نقية لدرجة شفافة يستطيع أن يقرأ ارتباكها من إصراره على الحديث.

تمَّت الخطبة في حفل صغير ضم الأسرتين والأصدقاء المقربين للعروسين، تألَّقت بفستان أسود بسيط لم تجلس أبدًا بل كالفراشة انتقلت بين الحضور ترحب بهم وتتعرف على أسرة عريس ابنتها في حرص واضح على اطمئنان زائد منها، وانتهى الحفل وقد حسم قراره، هو ليس بصغير السن لينتظر ويطيل التفكير إنه بحاجة إلى ونيس يشاركه حياته، مَن يبادله الرحمة بالرحمة والود بالود، مَن يغدق عليه حنانه فيرده أضعافًا مضاعفة.. وهي تحمل كل هذا.. لا ينكر أن قلبه تحرك تجاهها فهي سرقت أفكاره بسهولة ولكنه الآن يحتاج الأنس بها.

استيقظ مبكرًا كعادته عازمًا على اقتحام خلوتها، فاليوم ستكون بمفردها في النادي بعد تأكيده على ابنه أن يدعو خطيبته على الغداء بمفردهما في أحد المطاعم الراقية، يعرف أنه يغامر

وقد لا تذهب كعادتها حتى لا تجلس وحدها ولكن يُرجِّح معرفته الوثيقة بطريقة تفكيرها والتي اكتسبها من مراقبة كل كلمة وهفوة تخرج منها حتى بات يحفظ لزماتها الكلامية والحركية.. انتقى ملابس بسيطة تناسب الجو ووقف أمام مكتبته يبحث عن كتاب سمع مصادفةً إنها تبحث عنه ولأنه نسخة قديمة بعض الشيء فلم تستطع إيجاده في المكتبات، ابتسم بنصر عندما وقعت عينه عليه والتقطه ليمسح عنه التراب.

لم تخذله، فها هي تجلس بين يدها كتاب على منضدتها المعتادة وسبق أن اجتمعوا عليها مع أبنائهما.. تقدَّم نحوها بهدوء ويُحييها مُستأذنًا الجلوس ومرافقتها.. لم تغب عن عينيه حمرة خجل خفيفة لوَّنت وجنتيها ففهم أنها ستقبل على مضض ولكنه راضي، وضع حقيبة الكتاب الصغيرة أمامه وسألها عما تحب أن تشرب وطلب لهما المشروبات ليتحول الحديث بالتبعية حول ما تقرأ تُبهره دائمًا بوجهة نظرها وتحليلها لكل كلمة.. لا شيء مُسلَّم به فهناك لكل رأي رأيُ آخر يناقضه، لمعت عينيه بإعجاب أصبح من الصعب مداراته فمدَّ يده يناولها الكتاب مشيرًا إلى أنه ما تبحث عنه.. السعادة التي ظهرت على محياها أنبائه أنه أصاب الهدف الأول في مرماها وعليه التروي قبل الإقدام على خطوة خاطئة ولكنه بالتأكيد لن يماطل فاليوم يجب أن يصارحها برغبته.

امتدَّت الجلسة لما بعد الغداء الذي تشاركاه في حوارات هادئة تنم على اتفاق عقلي وثقافي، تطرَّق في حديثه إلى زوجته الراحلة ومعاناتها المرض في السنتين الأخيرتين من عمرها وحكت هي عن أقسى أعوام عمرها ألمًا وفقدان كل ما يدفعها للحياة الزوج، الابن، الشقيقة ليكافئها الله على صبرها بالصغيرة التي أصبحت ابنة لها وإن لم تلدها، كل هذا زاده إصرارًا، ليعرض عليها طلبه الزواج منها موضحًا وحدة تنتظرهما بعد زواج ابنيهما وأن ما بينهما من قواسم ألم متشابه وتلاقي أرواح يمنحه ثقة أن كلاهما ونيس مناسب للآخر.

ارتبكت.. شحبت.. صمتت.. هربت الكلمات ودمعت عينيها هل بعد كل هذا العمر من الوحدة يأتي من يرغبها لشخصها وعقلها وروحها، تجرأ ومدَّ يده يضغط على يدها المستندة على ذراع الكرسي وهو يهمس " فكِّري جيدًا وانسي كل شيء ما عدا راحتكِ أنتِ " ثم أكد أن قرارها لا علاقة له بزواج الصغار.

تبدَّلت الأدوار، فالصغيرة عَلمت أن هناك ما يشغل بال أمها وليس شيء هين، فليس من عادتها أن تنام قبل عودتها.. هي تشكُ في نومها من الأساس ولكن فضَّلت ترك مساحة لها فقد يكون

شكها في غير محله وأن الأمر وما فيه أنها شعرت اليوم قُرب أيام قادمة تحيا فيها وحيدة بعد زفافها، كم يؤلمها هذا ولكن ليس بيدها شيء إنها سُنَّة الحياة، ستحرص أن تزورها دائماً بل ستشغلها بأولادها عندما يحين وقتهم.

أتى الصباح يحمل لها إجابة تساؤلاتها، بالتأكيد الأمر تعدَّى قلقها على مستقبلها القريب، إنها تضع إفطارها أمامها لا تمسَّه وتحتضن كوب الشاي بالحليب خاصتها ولم ترتشف منه رشفة واحدة وهي من تعشقه ساخناً، اقتربت تمسك بيدها القريبة منها لترفع لها عينان حائرتان تائهتان، ابتسمت لها كأنها هي الأم التي تسعى لاعتراف من ابنتها أومأت لها وهمست " إحكي " وكأنها كانت صفارة الانطلاق لتندفع الكلمات من فمها ترافقها دموع عينيها تشرح ما حدث وتضع مخاوفها كلها على الطاولة..

كيف وهي في منتصف الخمسين تفكر في الزواج مرة أخرى؟ ماذا سيقول الناس عنها؟ بل هل سيوافق أخيها من الأساس؟! وما موقفها هي ابنتها من هذا الزواج ونظرتها لها كأنها كانت تنتظر زواج الصغيرة لتحيا حياة تنازلت عنها برضاها!.. وماذا عن؟.. وماذا عن؟ لم تترك شيء لم تصرح به، لتُسكتها ابنتها بضمها بحنان إلى صدرها وهي تسألها " وماذا عنكِ أنتِ ما

رأيكِ ؟ هل هو مناسب؟ هل شخصيته تعجبكِ؟"توقَّف كل شيء عن الدوران حولها مرة واحدة كأنها كانت تعدو في سباق لا ينتهي وأتت صغيرتها أوقفتها لتنتبه، أين هي من كل ما قالت؟ حين أبعدتها لترى وجهها وتمسح الدموع التي ملأته أكملت " أنا موافقة.. بل موافقة بشدة، كنت أحمل هم وحدتكِ فأتى من يؤنسكِ " وضعت كوبها على الطاولة ووقفت وهي تهمس بكلمات لا معنى لها فهمت منها أنها تحتاج إلى خلوة لتعيد التفكير من جديد.

صباح اليوم التالي؛ اتصلت بأخيها تطلب منه الحضور لموضوع هام.. وأكَّدت على صغيرتها أن تكون موجودة معها أو حتى قريبة منها لتستمد منها القوة فهي سندها، وأوصتها ألا تنقل موافقتها المبدأية لحماها وخطيبها، كانت تتوقع اعتراض وتتحضر لمواجهة ولكنها لم تصل بتفكيرها إلى هذه الثورة التي تراها مشتعلة أمامها.. اتهامات باطلة بأنها ستسيء إلى سمعة العائلة، وكيف سينظر الجميع له على أنه أجبرها على رعاية ابنة شقيقتهما المتوفاة وحرمها من الزواج السنوات الماضية.

أنها متصابية تملأها الغيرة من ربيبتها وزواجها القريب هنا كسرت الصغيرة الصمت لتقتحم الغرفة تقف بينهما تضع ذراعها

خلف ظهرها تحتضن أمها وهي تصرخ في خالها أن يصمت ويوقف إهانته المستمرة على من لا يستحق اللوم والعتاب.. انتهزت فرصة المفاجأة التي ألجمته لتعلن موافقتها على هذا الزواج إنه حقها وأعقبته بجملة واحدة " لا هو عيبًا ولا حرامًا " لتشتعل عينيه في غضب صامت ويندفع خارج الغرفة بل البيت كله مغلقًا الباب بعنف شديد تاركًا خلفه واحدة تلهث في غضب والأخرى تكاد تسقط انهيارًا.

هدأت الأجواء واستطاعت أن تقنعها على الإقدام على ما انتوته ولا تدع كلامه يؤثر فيها، ناولتها الهاتف مُشجعة لها على الاتصال به؛ وبالفعل بعد تردد دام دقائق اتصلت مُتلعثمة خجلًا لتنقل له في النهاية موافقتها على عرضه، انتقلت ساحة المعركة إلى بيته لم يكن يتوقع أن ابنه سيقف أمامه يناقشه بحده رافضًا أن تأتي أي سيدة وتحتل مكان أمه رافضًا كل مبرراته عن المودة والرحمة وونس يحتاجه في وحده يعلم هو فقط أبعادها، ليتركه وسط حوارهما مندفعًا إلى الخارج لا يعرف أين يتجه.

دار لبعض الوقت بسيارته هائمًا على وجهه ليجد نفسه واقفًا تحت منزل حبيبته وعروس والده المستقبلية ضحك داخله باستهزاء على العبارة الغريبة ثم استل هاتفه من جيبه يتصل بها

يطلب منها أن تنزل ليُحدِّثها بأمر هام ولكنها طلبت منه أن يصعد ولا يقلق هي لديها فكرة عن ما يرغب أن يُحدِّثها فيه وسيتناقشا وحدهما دون تدخل أمها.

وفي نفس الغرفة التي شهدت ثورة خالها وللمصادفة جلس على نفس الكرسي الذي أحتله قبله كأن هذا مكان انطلاق الثائرين، ضحكت على الفكرة ورسمت الجدية على معالم وجهها، تركته يخرج كل ما لديه من مخاوف ورفض تُغلَّف سببه الحقيقي وهو غيرته على أمه المتوفاة ثم بهدوئها المعتاد أخذت تحدِّثه عن أسباب والده لاتخاذ مثل هذه الخطوة، فهو يفكر في وحدته القادمة والتي ذاق منها القليل فقد كان يشغل وقته بعمله والآن هو بلغ سن المعاش فأصبحت المدة التي سيبقي فيها وحيدًا أطول لا ونيس ولا جليس ولا أحد يتحدث معه أو يكتشف مرضه إذا سقط لا قدَّر الله مريضاً.

حاول الاعتراض فأوقفته بالطبع لن تتخلى عنه ولكنها الحياة ستسحبنا في دوامتها ومهما حاولنا معاً إيفاء حقهم سنكون مُقصِّرين ثم ابتسمت وهي تؤكد على أسبابها المنطقية " أنظر إلى الجانب المشرق إننا لن نحتاج تخصيص يوم لكل منهما بل بسهولة سنُزيد من أيام زيارتهما معاً " ليشاركها الابتسام وهدأت نفسه.

السير عكس تيار العادات المجتمعية دائماً يواجهه صعوبات ومشاكل جمَّة، ولكنه كان من الفطنة أن يسوي كل الأمور مع أخيها قبل أن يُتمِّم الزواج منها فوافق على أن يُعقد قرانهما قبل ساعات من عقد قران وزفاف الأبناء وأن يكون في منزل العروس وأن يقوم بإشهار زواجهما من خلال صورة تنزل لهما برفقة العروسين تشير إلى أنها زوجته.

وافقه على كل شروطه ولكنه لم يستطع أن يقف في حفل زفاف ابنه صامت دون أن يُعلم الجميع بخبره السعيد، فانتهز فرصة إعلان مُنسِّق الأغاني أن ينضم كل زوجين لمشاركة العروسين الرقص ليتقدم ويتحدث في مكبر الصوت يدعو زوجته لأول رقصة لهما معاً ضارباً تعليمات أخيها بعرض الحائط.

وكانت نكهة العمر نكهة مختلفة

الفهرس

تقديم وشكر لابد منه ٣
شُكر وإهداء ٤
شلة الهوانم ٥
الفستان الأبيض ١٧
السنة السابعة ٢٥
المكالمة ٣٢
الـذبيــحة ٣٧
جرح غائر ٥٥
لحظة إفاقة ٦٧
هزة أرضية ٨١
بوح ٩١
أنيس الروح ١٠٤